موسوعة

الإمام علي عليه السلام

الفقيه
محمد جواد مغنية

الجزء الثاني

دار التيار الجديد
دار الجواد

[illegible]

[illegible]

موسوعة

الإمام علي عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة الروضة الحيدرية
٤٣٦٩
٢٥ / ٣ / ٢٠٠٥

الفقيه
محمد جواد مغنيّة

موسوعة الإمام علي عليه السلام

يحتوي هذا الكتاب على كل ما كتبه
محمد جواد مغنيّة في الإمام علي عليه السلام

الجزء الثاني

دار التيار الجديد
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ١٤ ـ ٥٨١٣
بيروت لبنان ١١ ـ ٥٢٠٧٠

دار الجواد
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ١٤ ـ ٥٨١٣
بيروت لبنان ١١ ـ ٥٢٠٧٠
DAR AL JAWAD@HOTMAIL.COM

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للناشر

١٤٢٥ هـ ـــ ٢٠٠٤ م

دار التيار الجديد للطباعة والنشر والتوزيع
تلفون ٠١/٥٤٤٠٩٠ ـ ٠٣/٥٧٨٨٥٠ ـ فاكس ٠١/٥٤١٩٣٠
الشياح ـ شارع معوض ـ بيروت ـ لبنان

علي والفلسفة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة على أشرف الخلق محمد وآله الطيبين.

وبعد:

فقد سبق أن قدمت لقرائي - فيما قدمت - كتاب «علي والقرآن» وكتاب «فضائل الإمام علي»، وطبع الأول للمرة الثالثة، والثاني في طريقة ثانية إلى المطبعة بعد أن أوشكت نسخه على النفاد. هذا بالإضافة إلى ما كتبته عن الإمام عليه أفضل الصلاة والسلام في كتاب «أهل البيت» وكتاب «مع الشيعة الإمامية» وكتاب «الشيعة والحاكمون» وغيره، وإلى المقالات والمحاضرات في المحافل والإذاعة.

والآن أقدم هذه الصفحات، وموضوعها «علي والفلسفة».

وسنقرأ نحن أو الأولاد والأحفاد كتاب «علي والسياسة»،

و«علي والأخلاق»، و«علي والتشريع»، و«علي والعلم الحديث». إلى ما لا نهاية.. ولو أصدرت المطابع في كل يوم كتاباً عنه لظلت الإنسانية بحاجة إلى من يتحدث عن شخصيته، ويكشف للأجيال عن نواحي عظمته، وسيجد كل جيل في آثار الإمام بداية جديدة، ولا ينتهي الكلام عن آثار علي وأفكاره إلا إذا انتهى العلم.

كتبت هذه الصفحات، وأنا على يقين أن ما فاتني لا يبلغه العد والإحصاء، وأن ما ذكرت ليس بشيء بالقياس إلى ما تركت من أقواله فيما قبل الطبيعة وبعدها، وفي الطبيعة وأشيائها، وفي الإنسان ومصيره وملكاته، وفي التشريع بشتى أنواعه وجهاته.. إن الإحاطة بفلسفة الإمام لا تتسنى لأي إنسان بالغاً ما بلغ من العلوم والمعارف.

وعلى الرغم من قلة بضاعتي فإن الذي جرأني على إخراج هذه الصفحات شعوري بأنها تشبه الكتاب الذي يُرسم فيه حروف التهجي لتعليم الأطفال في صف الحضانة راجياً أن تكون تمهيداً وتشجيعاً لمن هو أقدر وأبصر على أن يضع كتاباً أرفع وأعلى. وبكلمة، إن هذا الكتاب ينشد كتاباً في فلسفة الإمام أوسع وأشمل.

وإن قال قائل: حتى ألف باء من فلسفة الإمام لا يصدق على كتابك هذا.

قلت: أجل، ولكنه بمجموعه تصدق عليه علامة الاستفهام

عن هذه الفلسفة.. تاركا الجواب لأهله.. فليتكرموا به مأجورين. وأيضاً يصدق على هذا الكتاب إنه في فضائل الإمام ولكن من نوع جديد، فضائل تثبت بالتجربة والعلم الحديث. بمختبراته وأدواته، «لا يقال ويقول» وبه تتم الحجة، حتى على الملحدين الذين لا يؤمنون إلا بالحس والتجربة، حيث لا تفسير لعلوم الإمام، وما نطق به من الحقائق التي آمن بها أهل الشرق والغرب إلا بالغيب والوحي الذي نزل على قلب محمد ﷺ ولقنه لأخيه ووصيه وأمينه على علمه وسره.

ومهما يكن، فلقد خرجت من كتابي هذا بشعور أقرب إلى الرضا والارتياح.. ولا أدري ما هو سبب هذا الشعور، وعن أي شيء يعبر.. هل يعبر عن مزاجي الخاص. وميولي الشخصية، أو عن أملي بأن هذه الصفحات ستبعث غيري على المزيد والتوسع، أو يعبر عما خيل إليّ بانها تعرّف القراء ـ ولو بعضهم ـ بأشياء من فلسفة الإمام كانوا يجهلونها، أو أن شعوري بالرضا يمثل شيئاً من الحقيقة؟.. والله أعلم، وهو سبحانه المسؤول أن يخرج القارئ من هذا الكتاب بشعور الرضا والارتياح.

إنه خير مسؤول، والصلاة والسلام على صفوة الخلق محمد وآله.

في الفلسفة
نهج البلاغة

إن جل ما نقلناه من أقوال الإمام في هذه الصفحات مصدره «نهج البلاغة»، «والمستدرك» لجامعه الشيخ هادي كاشف الغطاء، «ومنهاج البراعة في شرح نهج البلاغة» للسيد حبيب الله الخوئي.

وشك ابن خلكان، ومن تبعه في نسبة نهج البلاغة إلى الإمام، ونسبوه إلى جامعه الشريف الرضي، واستدلوا بأمور أثبتنا بعدها عين الحقيقة في كتاب «فضائل الإمام علي» بعنوان «نهج البلاغة». والآن وبمناسبة الحديث عن فلسفة الإمام نعود إلى هذا الموضوع لنلم بما فاتنا ذكره في كتاب «الفضائل».

وأهم ما تشبث به الزاعمون أمران:

الأول: إن ما جاء في «نهج البلاغة» من الأخبار بالمغيبات لا يصدر عن عاقل.

الجواب:

إن كل ما أخبر به الإمام من المغيبات أخبر به وبغيره النبي من قبله، وأثبتها كل من البخاري ومسلم في صحيحه، والإمام أحمد في مسنده وغيره[1] بل روى مسلم أن «النبي حدث بما يكون إلى قيام الساعة، فحفظه من حفظه، ونسيه من نسيه».

ومن جملة من حفظه أمير المؤمنين صاحب الأذن الواعية، وباب مدينة علم الرسول، إذن، جميع أخبار الإمام عن المغيبات تستند إلى الرسول، وليس للإمام منها إلا الرواية، فمن أنكرها عليه فقد أنكرها على الرسول بالذات.

الأمر الثاني الذي تشبث به الزاعمون أن في نهج البلاغة أفكاراً سامية، وحكماً دقيقة لا تصح نسبتها إلى عصر الإمام، ولا يسوغ بحال أن نحدد معارف إنسان، أي إنسان مجردة، عن عصره ومجتمعه، وما يحيط به من الملابسات والمؤثرات.

الجواب:

إننا نصدق هذا المبدأ، ونؤمن بأنه ينطبق كل الانطباق على الناس العاديين الذين يأخذون من الأوضاع، ولا يعطونها، ويتأثرون بالبيئات والأفكار الشائعة، ويتكيفون بالعادات والتقاليد.

أما العظماء، أما علي الذي وجد قبل زمانه بألوف السنين

---

(١) انظر البخاري ج ٤ باب علامات النبوة، وباب قتال الروم، وباب قتال اليهود، وباب قتال الشرك، وج ٩ بخاري، كتاب الفتن فإن فيه أحاديث كثيرة عن المغيبات، حتى بترول العراق، وج ٤ من صحيح مسلم باب اخبار النبي فيما يكون إلى قيام الساعة، ومسند أحمد ج ١٢ وغيره من كتب الشيعة والسنة.

لا بمثاتها، فإنه يعطي العصور، ولا يأخذ منها، ويؤثر بعقول الناس ولا يتأثر بها، ويغير المفاهيم والظروف والأوضاع، ولا تغيره الأوضاع والظروف، لأنه فوق الظروف والبينات، فوق العصور والفلاسفة مجتمعين. إن أشهر الفلاسفة إطلاقاً سقراط وأفلاطون وأرسطو، وما عرف عن أحدهم أنه أعلن الحقيقة التي أعلنها الإمام بقوله: «إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة، إن الناس كلهم أحرار»[1] بل تكيفوا بمجتمعهم، وأقروا الرق، حتى قال أفلاطون وأرسطو: إن العبيد ليسوا مخلوقات إنسانية.

إن علياً هو النور الساطع الذي يبدد الظلام، والقائد الهادي إلى موطن الحق والأمان، والغيث الذي يحيي الأرض بعد موتها، لا الأرض التي تموت عطشاً إن لم تسق وترو، إنه القوة الدافعة بالإنسانية في طريق الكمال، إنه المحرك الذي لا يحركه شيء إلا الذي ليس كمثله شيء.

أجل، إن لعلي بيئة قد تأثر بها، ومحيطاً استوحى منه وفني فيه.. وهذه البيئة هي بيئة القرآن الذي فيه تبيان كل شيء، هي روح محمد ﷺ وإيمانه وعلمه وجهاده، وهذا المحيط هو بيت رسول الله ورسالته.. دخل علي إلى هذا البيت منذ نعومة أظفاره، وفيه نبت لحمه واشتد عظمه، وبقي ملازماً له، حتى اطلع على جميع كنوزه وأسراره، وحتى أصبح علي صورة كاملة عن النبي، وعن القرآن، وحتى جاز له أن يقول: «ذاك القرآن

(١) منهاج البراعة ج ٤ ص ٧٩ طبعة دار الفكر بقم، نقلاً عن روضة الكافي.

الصامت، وأنا القرآن الناطق». إن عظمة علي من عظمة محمد، وعظمة محمد من عظمة الله سبحانه، ومن أنكر على علي تفوقه على عصره، وسموه على مجتمعه فقد أنكر ذلك على محمد والقرآن، وعلى عيسى والإنجيل، وعلى موسى والتوراة.

إن قول علي: الأرض متحركة، وإنها معلقة بالفضاء، سابق للاكتشافات العلمية العصرية، ما في ذلك ريب، ولكن هذا الفكر، وهذه الصورة عن الأرض هي للغيب لا لعلي، هي للذي سبق وجوده العقول والعلوم، والكون بكامله، وليس لعلي منها إلا الأخبار عن النبي عن جبريل عن الله.

كان المسلمون في عصر الشريف الرضي يعتقدون بأن الأرض ساكنة، والشمس تدور حولها، وأخذوا ذلك عن اليونان، وبصورة خاصة عن بطليموس، ولم يكن أحد في الشرق والغرب يرى أن الأرض متحركة، حتى ظهر «كوبرنيكوس» سنة ١٥٣٠م - إذن - من أي مصدر استقى الشريف الرضي ما جاء في نهج البلاغة هذه الجملة «فسكنت الأرض على حركتها»؟.. ولو صح القول بأن نهج البلاغة من وضع الشريف لجاز لنا أن نقول: إنه من وضع كوبرنيكوس البروسي.

وإلى هنا ندع الكلام في هذا الموضوع اتكالاً على ما ذكرناه في كتاب الفضائل، ونتمنى على القارئ الكريم أن يرجع إليه، لأن كلا منهما جزء متمم للآخر، وغير بعيد أن نضيف إليهما أشياء أخرى في المستقبل القريب أو البعيد، لأن طبيعة

التطور كما تستدعي التغيير من الأساس فإنها تقتضي أيضاً التقليم والتطعيم.

ومن الخير أن نختتم هذا الفصل بما ذكره الأستاذ فؤاد إفرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية في العدد الأول من روائعه الخالدة الخاص بالإمام، قال: للإمام علي.

أ ـ نهج البلاغة.

ب ـ ألف كلمة.

ذكرها ابن أبي الحديد في آخر شرحه لنهج البلاغة ـ طُبعت وحدها في بيروت، ١٣٢٩هـ (١٩١١).

ج ـ نثر اللآلي.

مجموعة حكم وأمثال مرتبة على حروف الهجاء، عددها ٢٧٨ حكمة.

د ـ غرر الحكم ودرر الكلم.

مجموعة حكم وأمثال، جمعها ورتبها على حروف الهجاء عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد، ذكر منها بالطبع ٥٣٧ حكمة.

هـ ـ بعض الأمثال.

جمعها أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، غير مرتبة، عددها ٤٨ مثلاً، ذُكر بعضها في «النهج».

ـ طفافة بعض الأمثال.

ذكره شظاظا ورفعه الميداني المشهور إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عددها ١٧ مثلاً مع شرحها للميداني.

وهذه الكتب الأربعة (ج، د، ه، و) طبعها المستشرق كورنيليوس فان واينين Cornelius Van Waenen مع ترجمة وشروح لاتينية، في مجلد واحد، في اكسفورد سنة ١٨٠٦ بعنوان: Sententiae Ali ebn Abi Talebi.

وقد طُبع منها «غرر الحكم ودرر الكلم» في مطبعة العرفان، صيدا، سنة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠).

ز ـ دستور معالم الحكم، ومأثور الشيم.

مجموعة خطب وحكم، جمعها القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القطاعي ـ طبع سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٣).

ح ـ كتاب المئة.

يحتوي على مائة كلمة اختارها أمين نخلة من كلام علي ونُشرت في مطبعة العرفان، صيدا، سنة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠).

وقد نشر الأب لويس شيخو اليسوعي بعض حكم لعلي، نقلاً عن مخطوطة قديمة يرتقي عهدها إلى سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٧)، في مجلة المشرق (٥ (١٩٠٢) ١٠).

ونشر الشيخ أحمد رضا خطباً ومواعظ وأقوالا لعلي لم تنشر في «نهج البلاغة» أو نشر بعضها فنشر باقيها في مجلة

العرفان (٨ / ١٩٣٤) ١٠٨).

وهناك كثير من خطب علي وأقواله، متفرقة في كتب الأدب «كالمخلاة» و«الكشكول» لبهاء الدين العاملي، و«العقد الفريد»، و«مروج الذهب»، وغيرها.

هل كان الإمام علي فيلسوفاً؟

إذا جاز أن نطلق لقب فيلسوف على من يجمع مسائل الفلسفة، ويرتبها، وينظمها في كتاب مستقل، أو على من يشرحها، أو يعلّق عليها، أو يدرّسها لتلاميذه، إذا جاز هذا فبالأحرى أن نطلق لقب سيد الفلاسفة[1] ومعلمهم الأول على الإمام علي عليه السلام الذي سبق القرون والأجيال إلى معرفة الكون وأسراره.

وأيضاً إذا كان الفيلسوف هو الذي يعرف العالم ويعرفه للعالم فلسنا نعرف أحداً أغزر علماً، وأعمق غوراً، وأصوب رأياً، وأبعد صيتاً، وأوفر حظاً بالإكبار بعد رسول الله من أمير المؤمنين الذي قال في كل موقف، وبشتى المناسبات «سلوني قبل أن تفقدوني».

إن أمره بسؤاله دون أن يحدد نوع المسؤول عنه بعلم خاص،

---

(١) نقول هذا على سبيل التجوز والتسامح، لأن كلمة فيلسوف، وما يمت إليها بصلة إنما تطلق على من يعرف الحقائق بالعقل والتجربة، أما الإمام الذي استمد علومه من الوحي بواسطة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فهو فوق الفلاسفة مجتمعين.

أو بباب خاص، لدليل واضح على أنه سيد الفلاسفة، وإمام الحكماء، وأنه العالم الأكبر بجميع العلوم ودقائقها وأسرارها، وأنه صاحب إيضاحها وبيانها، وأنه بلغ فيها أقصى الغايات وأبعدها من الآلهيات إلى التفسير والقرارات إلى الفقه والحديث والأخلاق والقضاء وفصل الخصومات، إلى الفصاحة والبلاغة، وسائر العلوم الأدبية، إلى الرياضيات والطب، والكيمياء، إلى المجادلة والمناظرة لإثبات الحق، وإفحام المعاندين والجاحدين.. وإليك بعض الأدلة والشواهد:

في الإلهيات:

سنعرض فيما يأتي من فصول الكتاب أقوال الإمام في إثبات المبدأ الأول وصفاته، وفي الوحي والنبوات، والبعث والنشر، والقضاء والقدر، وما إلى ذاك.. والغرض الذي نرمي إليه الآن هو بيان وجه الشبه بين منهج الإمام، ومنهج الفلاسفة المسلمين من الاعتماد على العقل، والاستدلال بوجود اللازم والأثر على وجود الملزوم والمؤثر، وبوجود أحد الضدين على نفي ضده، واستخراج النتائج من المقاييس المنطقية، فإنه في أكثر كلامه يرتب القضايا، ويؤلفها بلفظ واضح موجز، يحافظ فيها على الحد الأوسط، تماماً كما يفعل الفلاسفة وأهل المنطق.

من ذلك قوله في تمجيد الله والاستدلال على وجوده تعالى وقدمه: «الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه، وبمحدَث خلقه على أزليته».

وهذا استدلال بوجود الفعل على وجود الفاعل المعبر عنه باصطلاح الفلاسفة بالدليل الإني[1]. وقال: بصنع الله يستدل عليه، وبالعقول تُعتقد معرفته، وبالتفكير تثبت حجته، معروف بالدلالات، مشهور بالبينات.

وقوله في حدوث كلام الله: «لو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً. وهذا من باب القياس الاستثنائي، وتتميم الكلام، ولكنه ليس إلهاً ثانياً فهو ليس بقديم.

وقوله في أن الله غير قائم في محل: «وكل قائم في سواه معلول». والله سبحانه غير معلول، فهو إذن ـ غير قائم في شيء.

وقوله في نفي الصفات الزائدة على الذات: «من وصفه فقد حدَّه، ومن حدَّه فقد عدَّه، ومن عدَّه فقد أبطل أزليته».

أي من وصفه بصفات زائدة فقد حده وعرَّفه بها، وجعلها أجزاء له، وعليه يكون واجب الوجود مركباً، والمركب ممكن، لافتقاره إلى أجزائه، وكل هذه اللوازم باطلة، فالملزوم وهو زيادة الصفات على الذات باطل.. وهذي هي طريقة الفلاسفة بالذات، إلى غير ذلك من المقاييس التي يستعملها أهل المنطق، مثل قوله: أصدقاؤك ثلاثة، وأعداؤك ثلاثة: فأصدقاؤك صديقك، وصديق صديقك، وعدو عدوك.. وأعداؤك عدوك، وعدو صديقك،

---

(١) ينقسم الإستدلال في عرف أهل المنطق إلى قسمين: الأول الاستدلال اللمي، وهو معرفة المعلوم بواسطة العلة، والثاني الإستدلال الاني، وهو معرفة العلة بواسطة المعلول.

وصديق عدوك.. ويرجع هذا إلى قياس المساواة.

وانظر إلى هذا الإلزام المحكم مستدلاً به على بطلان القياس، «أما لو كان الدين بالقياس لكان باطن الرجلين أولى بالمسح من ظاهرهما».

وهذا النوع من الجدل هو الذي يصطنعه الفلاسفة في النقض، وإبطال دعوى خصومهم. وبهذا يتبين معنا أن الإمام هو الممثل الأول للنزعة العقلية في الإسلام، والسابق إلى الذب عنه بمنطق العقل، وليس المعتزلة ـ كما قيل ـ فإن المعتزلة ترسَّموا خطاه، وساروا على طريقه.

في الأرض:

كان كثير من الناس يعتقدون أن الأرض قائمة على قرن ثور، وقال آخرون: إنها عائمة على وجه الماء، وإنها مجوفة، تماماً كالسفينة.. وقال ثالث: إن للأرض عمداً وقوائم ثابتة على جبل قاف.. أما الإمام فقد نطق بالحقيقة الناصعة التي نراها اليوم ضرورة أولية، قال في بعض خطب النهج يوم لا علم، ولا نظرية جاذبية[1].

«وأنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال، وأرساها على غير

(١) نقل صدر المتألهين الشيرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾، نقل أن بعض الفلاسفة قال: «إن الفلك يجذب الأرض من جميع الجوانب على نسبة واحدة» والشيرازي المتوفى سنة ١٠٥٠هـ متقدم على نيوتن الذي تنسب إليه نظرية الجاذبية بأكثر من مئتي سنة.

قرار، وأقامها بغير قوائم، ورفعها بغير دعائم».

وفي خطبة رواها الشيخ هادي كاشف الغطاء في المستدرك:

«ورفع السماء بغير عمد، وبسط الأرض على الهواء بغير أركان».

ووصف في بعض خطب النهج ما يحيط بالأرض من أجواء جعلت طرقاً للهواء الذي يحمل بخار الماء، ويتحكم به مداً وجزراً:

«ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الأرجاء، وسكائك الهواء[1] فأجرى فيها ماء متلاطماً تياره، متراكماً زخاره على متن الريح العاصفة، والزعزع القاصفة[2] فأمرها برده، وسلطها على شده».

وهذا الكلام صريح بأن الهواء يحيط بالأرض، وان بينها وبين غيرها منطقة لا شيء فيها سوى الرياح والأمطار والسحب والعواصف.

وهذا عين ما جاء في الجزء الأول من كاب «العلم في حياتنا اليومية» ص ٣٨[3].

---

(١) السكائك: جمع سكة، وهي الطريق.

(٢) الزعزع: شديد الصوت.

(٣) اعتمدنا هذا الكتاب بالنظر لأهميته من الوجهة العلمية، فلقد اشترك في تأليفه ثلاثة من كبار علماء الغرب، وهم: أوربون، وهبس، ومنتجمري، وترجمة اثنان:

«يحيط بالكرة الأرضية غلاف من الهواء يسمى بالغلاف الهوائي الجوي. . وينقسم المحيط الهوائي إلى طبقات كبيرة بعضها فوق بعض، وفي الطبقة الأولى تحدث كل التغيرات الجوية، وتنشأ فيها الرياح والأمطار والسحب والعواصف».

وإذا لم يصرح الإمام بأن الهواء طبقات بعضها فوق بعض فإن قوله سكائك الهواء، أي طرقها يشعر بها، ويمكن حمله عليها.

حركة الأرض:

ألف الفيلسوف اليوناني بطليموس كتاباً في سكون الأرض ودورة الشمس عليها، فشاع مذهبه، وذاع، واعتنقه فلاسفة الإسلام، ونقلوه في كتبهم، كالفارابي وابن سينا وغيرهما من العلماء والمفسرين والمحدثين، وساد هذا المذهب، حتى ظهر «كوبرنيكوس» في القرن السادس عشر، وأثبت أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، فحكم عليه في مجمع كنيسة رومية بالزيغ والإلحاد[1]، أما الإمام وأحفاد الإمام فقد أعلنوا هذه

الدكتور أحمد حماد الحسيني، والدكتور صلاح الدين عبد السلام، وراجعه الدكتور عبد الحليم منتصر، ونشرته مكتبة النهضة المصرية بالإشتراك مع مؤسسة فرانكلين.

(١) قال نصر الدين الطوسي المتوفي سنة ٦٧٢هـ وبهاء الدين العاملي المتوفي سنة ١٣٠١هـ، قالا: (لا شيء يمنع من أن تكون الأرض متحركة). الهيئة والإسلام للشهرستاني. وأعجب من هذا ما نقله أحمد أمين المصري في كتاب يوم الإسلام ص ٨٩ طبعة ١٩٥٨ (أن الطوسي أسبق من أينشتين في فهم الزمنية)، أي النظرية النسبية التي بني عليها تفتيت الذرة.

الحقيقة قبل أن يخلق «كوبرنيكوس» بمئات السنين، قال الإمام في إحدى خطب النهج يصف الأرض:

«فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها، أو تزول عن مواضعها».

وفي خطبة ثانية: «وتدل حركتها بالراسيات من جلاميدها».

وقال حفيده الإمام الصادق كما جاء في احتجاج الطبرسي.

«إن الأشياء تدل على حدوثها، من دوران الفلك بما فيه، وهي سبعة أفلاك، وتحرك الأرض ومن عليها، وانقلاب الأزمنة واختلاف الوقت».

للأرض حركات شتى، أنهاها بعض الفلكيين إلى ١٤ حركة، منها ما تستغرق ٢٦ ألف سنة، ومنها قرابة ثلاثة آلاف سنة، ومنها تتم بـ ٢٤ ساعة، وهي الحركة اليومية، ومنها تتم بـ ٣٦٥، وهي الحركة السنوية واختلاف الفصول، وهي الربيع والصيف والخريف والشتاء، نتيجة الحركة السنوية، واختلاف ساعات اليوم، وهي الصبح، والضحى، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء والسحر، نتيجة الحركة اليومية. وإشارة الإمام إلى حركة الأرض تشمل الجميع.

في الشمس:

جاء في إحدى خطب النهج:

«وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها، وقمرها آية ممحوة من ليلها، وأجراهما في مناقل مجراهما، وقدر مسيرهما في مدارج درجهما، ليميز بين الليل والنهار بهما، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما».

قال الفلكيون الجدد: إن لكل من جرم الشمس والقمر حركة خاصة به، كما أن للأرض حركات تخصها، وجاء في كتاب «الله والعلم الحديث» للأستاذ نوفل ص ١٧٠ أن «سيمون» العالم الفلكي الحجة قال:

«من أعظم الحقائق التي اكتشفها العقل البشري في كافة العصور هي حقيقة أن الشمس والكواكب السيارة وأقمارها تجري في القضاء نحو برج النسر».

وحين أراد الإمام المسير لبعض حروبه قال منجم: إن سرت في هذا الوقت لن تظفر بمرادك.

فقال الإمام: إن النجوم لا تنفع ولا تضر، وإنما يهتدي بها المسافرون في بر أو بحر.

خلق آخر:

سئل الإمام الصادق الذي ينتهي علمه إلى جده أمير المؤمنين، سئل:

ـ هل في السماء خلق؟

قال، أجل، وفي الفضاء الذي بين سماء وسماء خلق[1].

وقال الصادق في حديث آخر:

«إن لله عز وجل اثني عشر ألف عالم كل عالم منهم أكبر من سبع سموات وسبع أرضين، ما يرى عالم منهم أن لله عز وجل عالماً غيرهم».

والعارفون ـ اليوم ـ يعتقدون بأن في الكون عوالم لا يبلغها العدد والإحصاء، وغير بعيد أن يكون قول الإمام ١٢ ألفاً كناية عن الكثرة، لا الحصر.

ونقل السيد الشهرستاني في كتاب «الهيئة والإسلام» ص ٢٧٨ طبعة ثانية عن المجلد الـ ١١ من مجلة الهلال المصرية ص ٧٨ أن هوف الأميركي ألقى خطاباً أعرب فيه عن اعتقاده «بأن المريخ والزهرة[2] وعطارد آهلة بالناس، وسائر الأحياء، وأن سكانها أرقى من سكان الأرض بدناً وعقلاً».

ونقل الأستاذ نوفل في كتاب «القرآن والعلم الحديث» ص ١٧٧ طبعة أولى، أن عالمين روسيين، وهما أوبارين، وفسنكوف ألفا كتاباً عنوانه «الكون» قالا فيه: «إن هناك كثيراً من الكواكب مسكونة في هذا الكون».

وإذا استندت هذه الأقوال إلى مجرد الاستنتاج فإن العلم في

---

(١) البحار مجلد ١٤ ص ١١٣ طبعة ١٣٠٥هـ.

(٢) إن المعلومات التي تلقاها العلماء من صواريخ الفضاء دلت على أن درجة الحرارة على الزهرة تبلغ ٤٢٥ مئوية، فالحياة عليها ـ إذن ـ محال.

المستقبل القريب أو البعيد سيعبد الطريق للسفر عبر الفضاء من كوكب إلى كوكب في أطباق طائرة، ويجتمع أبناء أبينا آدم بأبناء عمومتهم في المريخ أو عطارد.

وزن النور والظلمة والهواء:

نقل السيد هبة الدين الشهرستاني في كتاب «الهيئة والإسلام» عن الشيخ الحر العاملي في الصحيفة الثانية السجادية، والسيد نعمة الله الجزائري في شرحه على تعليقات الصحيفة السجادية دعاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام جاء فيه:

«سبحانك تعلم وزن السموات، سبحانك تعلم وزن الأرضين، سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر، سبحانك تعلم وزن النور والظلمة، سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء، سبحانك تعلم وزن الريح كم هي من مثقال».

وجاء في كتاب «العلم في حياتنا اليومية» ج ١ ص ٤١ و٤٢: «انفخ كرة قدم، أو كرة سلة بالهواء بواسطة منفاخ، ثم ضعها على كفة ميزان، وزنها، ثم أفرغها من الهواء، وتأكد من أخراج كل الهواء منها، ثم زنها ثانية.. فتعرف من هذه التجربة أن للهواء وزناً مهماً».

وفي كتاب «غدنا والذرة» تأليف «كوننت» ترجمة عفيف البعلبكي فصل «المشهد العلمي المتبدل»:

«إن القول بأن الضوء إنما يبعث، ويتسلم كما لو كان سيلاً

من الذرات، وانه إنما ينتقل كما لو كان مجموعة من الموجات، إن هذا القول كان في نظر العلماء منذ أربعين سنة بمثابة القول ان صندوقاً ما ممتلئاً، وفارغاً في الوقت نفسه، لقد كان من المستحيل على الضوء في اعتقادهم أن يكون جسمياً وتمويجياً في وقت معاً».

أجل، إن وزن الضوء كان محالاً في نظر العلماء في أوائل القرن العشرين، ولكنه بديهي عند آل الرسول منذ مئات السنين. أما وزن الفيء والظلمة فلم أطلع عليه في كتاب حديث، ولا أدري: هل توصل إليه العلم أولاً، ولا بد أن يبلغه في يوم من الأيام..

الرياح والأمطار:

وسأله سائل: ما الذاريات ذروا؟ قال: الرياح. قال السائل الحاملات وقرا؟ قال: السحاب. قال السائل: فالجاريات يسرا؟ قال: السفن.

قال السائل: فالمقسمات أمرا؟ قال: الملائكة.

وقال: إنما يكون السحاب ثقيل السير لامتلائه بالماء.

وسمع قائلاً يقول: قوس قزح.

فقال الإمام: لا تقولوا قوس قزح، وقولوا: قوس الله، وأمان من الغرق.

أما وصف الإمام الأرض والسماء، ونظام الكون، وإسراره وعجائب مخلوقاته، كالطاووس والخفاش والنملة والنحلة والغراب والجرادة وما إلى ذاك فإن فيه من الصدق والعمق، ودقة التصوير وبلاغة التعبير ما يرفعه فوق الفلاسفة والعلماء والأدباء مجتمعين.

في الإنسان:

قال مشيراً إلى الأدوار التي يمر بها الإنسان: «أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام، وشغف الأستار نطفة دهاقاً، وعلقة محاقاً، وجنيناً وراضعاً، ووليداً ويافعاً، ثم منحه قلباً حافظاً ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، ليفهم معتبراً، ويقصر مزدجراً».

وقال: «علق بنياط[1] هذا الإنسان بضعة هي أعجب منه، وذلك القلب، وله مواد من الحكمة وأضداد من خلافها، فإن سنح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وان ملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعده الرضى نسي التحفظ، وإن ناله الخوف شغله الحذر، وإن اتسع له الأمن استلبته الغيرة، وإن أفاد ما لا أطغاه الغنى، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن عضته الفاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط به الشبع كظّته البطنة، فكل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد»[2].

---

(١) النياط عرق متصل بالقلب.

(٢) وقد عبر عن هذا المعنى الأديب الفرنسي المعاصر (هنري لوفيفر) عبر عنه =

والقلب أول عضو يتحرك في بدن الإنسان، وآخر ما يسكن فيه، وبسكونه تنتهي حياة صاحبه، وله خواص وصفاته متضاربة متناقضة، شيطانية وإنسانية، وبهذه الخواص يختلف عما عداه من المخلوقات، حيث لا نعرف شيئاً واحداً تختلف آثاره وتتباين بالكنه والحقيقة، كما هي الحال بالقياس إلى القلب الذي يجمع بين بواعث الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، ومن هنا كان الموقف بين هذه الدواعي والبواعث من أحرج المواقف وأخطرها، لا يثبت فيه إلا الحكيم العاقل الذي يستطيع الصمود، والوقوف موقفاً وسطاً لا تقصير فيه ولا إفراط.

وقال الإمام مشيراً إلى ضعف الإنسان: ما لابن آدم والفخر؟ أوله نطفة، وآخره جيفة، لا يرزق نفسه، ولا يدفع حتفه.

وقال أيضاً: مسكين ابن آدم، مكتوم الأجل، مكنون العلل، محفوظ العمل، تولمه البقة، وتقتله الشرقة، وتنتنه العرقة.

وقال مشيراً إلى عظمة الإنسان ومقدرته: «الإنسان يشارك السبع الشداد» أي أن موهبته لا تقف عند حد الوضع الذي هو فيه.. بل تتعداه إلى ما هو أسمى وأرفع، بل وإلى مشاركة القمر

= بأسلوب آخر، حيث قال: إن الإنسان مجموعة من المتناقضات تماماً كالمجتمع الذي يعيش فيه، ويجب أن يحلل التركيب الفردي المتناقض، كما يحلل المجتمع المتناقض الذي يعيش فيه الفرد. وقال بسكال: إن الإنسان مخلوق شاذ غريب الخلقة لا سبيل إلى فهمه.

والزهرة والمريخ. وسائر الكواكب، يسخرها لحاجاته وأغراضه..

أشار الإمام إلى ضعف الإنسان، كي لا يركن إلى قوته ويغتر بها فيطغى، وأشار إلى قوته، كي لا يستسلم للضعف إن أصابه، فينصرف عن الجهاد والعمل.. والعاقل من يناضل وهو على حذر من المخبآت والمفاجآت.

في الطب:

ومن أقواله في الطب: «امش بدائك ما مشى معك» أي اجتنب الدواء ما احتمل بدنك الداء، فإذا لم يحتمل فعليك بالدواء. وقد أيد الطب الحديث هذه النظرية.

ومن وصيته لولده الإمام الحسن: لا تجلس إلى الطعام إلا وأنت جائع، ولا تقم عنه إلا وأنت تشتهيه، وجوّد المضغ، وإذا نمت فاعرض نفسك على الخلاء.

فجلوسك إلى الطعام، وأنت تشتهيه معناه أن الطعام السابق قد هضم، أما قيامك عنه، وأنت تشتهيه فالغاية منه عدم اضطراب المعدة وراحتها، لتسهل عليها عملية الهضم، أما تجويد المضغ فقد أوصى به جميع الأطباء قال الطبيب «اس. سلمون» في كتاب «الصحة والحياة ص ٢٩ طبعة ١٩٣٢»: «لكي يتسنى للمعدة أن تقوم بوظيفتها جيداً ينبغي أن يطبخ الطعام، ويمضغه مضغاً تاماً».
وقال الطبيبان الكيال والصواف في كتاب «علم التشريح» ص ٢٠٤ طبعة ١٩٤٧:

«إن المضغ الجيد يسهل الأغذية، إذ نعرف جيداً أن المضغ الناقص يحدث كثيراً من الآفات المعدية المعوية، وسوء الهضم».

وقال الإمام: استجادة الحذاء وقاية للبدن.

وجاء في كتاب «جسم الإنسان» للكيال والصواف والفراص ۱۸۳ طبعة ١٩٤٥: «وأهم شرط صحي في الحذاء أن لا يضغط على ناحية من نواحي القدم، فتشوهها، وتكوّن بعض الحؤلات الجلدية، وأن لا يكون ضيقاً تتراكب الأصابع فيه».

وقال الإمام: انظروا من يرضع أولادكم اللبن، فإن الولد يشب عليه، وما من لبن أعظم بركة على الصبي من لبن أمه.

ولا يختلف طبيبان في أن لبن الأم أفضل الأغذية إطلاقاً لوليدها، وجاء في آخر صفحة من كتاب «علم وظائف الأعضاء» للطبيبين محمد طلعت، وأحمد حسن: «فالأم التي تهمل إرضاع وليدها ترتكب في حق صحته خيانة لا تغتفر، لأنها تقدم إليه طعاماً غير طبيعي بدلاً من الطعام الذي يقدمه إليه الله سبحانه».

وفي كتاب «الصحة والحياة» إذا تعذر على الأم إرضاع طفلها بسبب مرض قد انتابها بعد الولادة، فيحسن بها أن تعهد به إلى حاضنة أو مرضعة، ويشرط في اختيارها أن تكون سليمة البنية خالية من الأمراض المعدية.

وقال الإمام: الحمى رائد الموت.

إشارة إلى ارتفاع وجود الخطر عند ارتفاع درجة الحرارة.

وقال: اكسروا الحمى بالبنفسج والماء البارد.

قال الدكتور شريف عسيران في كتاب «علم الصحة» ج ١ ص ٢١٠ طبعة أولى عند كلامه على حمى النيفوس: «إنها تعالج بالنظافة، والهواء النقي، ومسح جسم المريض بالماء البارد، وحين ارتفاع الحرارة فوق الأربعين يلف المريض بشرشف مبلل بالماء البارد».

وقال الإمام: العقل في الدماغ، والضحك في الكبد، والرأفة في الطحال، والصوت في الرئة.

والذي يلفت النظر أن الإمام جعل للدماغ وظيفة تخصه، كما أن للعين والأذن وبقية الأعضاء وظائف تخصها. وقد جاء في كتاب «علم التشريح» ص ١٢٢: «المخ مقر الفكر والذكاء والإرادة».

وفي كتاب «الحكماء السبعة» تأليف «فان وسب» ص ١٨١: إن العالم الإنكليزي بل، والفرنسي ماجندي، والجرماني موللر اكتشفوا نوعين من الأعصاب: أعصاب الحس، وأعصاب الحركة، فالرسالة التي تنقلها أعصاب الحس إلى الدماغ، يحيلها الدماغ بدوره إلى العضلات المختصة بتأدية العمل بواسطة الحركة.

وقال له رجل: إن زوجتي شابة، وهي عذراء، ولكنها حامل في شهرها التاسع، ولا أعلم منها إلا خيراً، وأنا شيخ كبير

ما افترعتها[1] وأنها على حالها.

قال له الإمام: هل كنت تهريق على فرجها؟.

قال: نعم.

قال الإمام: لكل فرج ثقبين: ثقب يدخل فيه ماء الرجل، وثقب يخرج منه البول، والرحم تحت الثقب الذي يدخل منه ماء الرجل، فإذا دخله ماء واحد حملت المرأة بولد واحد، وإذا دخل اثنين حملت باثنين، وإذا دخل ثلاث حملت بثلاثة، وإذا دخل أربعة حملت بأربعة، وليس هناك غير ذلك، وقد ألحقت بك ولدها[2].

• يعيش الحمل لستة أشهر، ولسبعة أشهر، وتسعة أشهر، ولا يعيش لثمانية أشهر.

• ينتهي طول الصبي لإحدى وعشرين سنة، وينتهي عقله لثمان وعشرين إلا التجارب.

• من أراد البقاء ولا بقاء فليباكر بالغداء ويقلل غشيان النساء.

• كم أكلة منعت أكلات؟

• اعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم، ويتكلم بلحم، ويسمع

---

(١) افترع البكر أزال بكارتها.

(٢) البحار للمجلسي مجلد السماء والعالم ص ٣٨١. قال لي الدكتور فؤاد أديب خليفة: إن الحمل بأربعة حصل كثيراً.

بعظم، ويتنفس من خرم!.

• لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء.

وقال بعض العارفين: «إن للإمام علي أربع كلمات في الطب لو قالها بقراط لكان لها شأن أي شأن، وهي: توقوا البرد في أوله، وتلقوه في آخره، فإنه يفعل بالأبدان كما يفعل بالأشجار، أوله يحرق، وآخره يورق».

وتحاكمت إليه امرأتان، ولدت إحداهما ذكراً، والثانية أنثى في آن واحد في بيت واحد، وادعت كل منهما أنها أم الغلام، فدفع إلى إحداهما قدحاً، وقال لها: احلبي فيه من ثديك، حتى يمتلئ، ففعلت كما أمرها، فوزن الحليب، وأفرغ القدح، وأعطاه للأخرى، وأمرها كما أمر الأولى، ثم وزنه، فكان أحد الحليبين أخف من الآخر، فقال لصاحبة اللبن الخفيف: خذي ابنتك، ولصاحبة اللبن الثقيل: خذي ابنك.

وفي الجزء الأول من كتاب «علم وظائف الأعضاء» ص ٣٧٦ «أن الألبان تختلف باختلاف الصغار» أي المرتضعين، وغير بعيد؟ أن يكون ثقل حليب الذكر، وخفة حليب الأنثى هما السبب في أنه أقوى منها بدناً وأثبت جناناً.

في الرياضيات:

جلس رجلان يتغذيان، وكان مع أحدهما خمسة أرغفة،

ومع الآخر ثلاثة، فمر بهما رجل، فقال له: اجلس معنا للغداء. فأكل معهما، ولما انتهى طرح ثمانية دراهم، وقال: هذي عوضاً عما أكلت.

قال صاحب الأرغفة الخمسة لصاحبه: لي خمسة دراهم، ولك ثلاثة.

قال صاحب الثلاثة: لا أرضى إلا أن تكون الدراهم بيننا نصفين.

ولما اشتد بينهما الخلاف تحاكما إلى الإمام، وقصّا عليه القصة. فقالَ لصاحب الثلاثة: ارض بالثلاثة. فقال: لا والله إلا بمر الحق.

فقال الإمام: ليس لك بمر الحق إلا درهم واحد.

قال صاحب الثلاثة: وكيف؟

قال الإمام: لك ثلاثة أرغفة، ولصاحبك خمسة، فالمجموع ثمانية تنقسم إلى ٢٤ ثلثاً، لك من هذه الأربعة والعشرين ٩ أثلاث ولصاحبك ١٥ ثلثاً، وقد أكلت أنت ٨ أثلاث فذهب منك ثلث واحد لا غير، وأكل صاحبك أيضاً ٨ أثلاث فذهب منه ٧، وأكل الرجل الثالث ٨ دفع عوضها ٨ دراهم عن كل ثلث درهماً، فيكون لك درهم واحد عوضاً عن ثلثك الواحد، ولصاحب الأرغفة الخمسة ٧ دراهم عوضاً عن أثلاثه السبعة. وهذا هو مر الحق الذي تطلبه، فرضي بالدرهم بعد أن رفض الثلاثة.

وجاءته امرأة، وقالت: يا أمير المؤمنين إن أخي مات، وترك ستمئة دينار، وقد دفعوا إلي ديناراً واحداً فأسألك إنصافي.

فقال لها على البديهة: لعل أخاك ترك بنتين، لهما الثلثان ٤٠٠ وأماً لها السدس ١٠٠، وزوجة لها الثمن ١٢,٧٥ و١٢ أخاً لهم ٢٤ لكل واحد ديناران ولك درهم واحد.

فقالت: نعم[1].

وله في هذا الباب الشيء الكثير تجده في كتاب «عجائب أحكام أمير المؤمنين» للسيد محسن الأمير وفي آخر الجزء الثاني من كتاب «التكامل في الإسلام» لأحمد أمين العراقي.

في الكيمياء:

جاء في الجزء الثاني من كتاب «منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة» إن الإمام سئل عن الكيمياء، فقال: ماء جامد، وهواء راكد، ونار جائلة وأرض سائلة، وسئل ثانية من أي شيء هي؟ فقال: من الزئبق والأسرب والزاج والحديد وزنجار النحاس الأخضر[2].

وفي كتاب «عجائب الكيمياء» تأليف «ا.ت مكدوجل»

---

(١) هذا التقسيم يصح على مذهب السنة القائلين بالتعصيب، أما على مذهب الشيعة فلا، لأنهم لا يورثون الأخوة من البنات، ولا مع الأم، وفي هذه المسألة يعطون الثمن للزوجة، والسدس للأم، والباقي للبنتين.

(٢) الأسرب الرصاص، والزاج نوع من الملح.

ترجمة الدكتورين أحمد رياض ويوسف صلاح الدين، أن هذه الأشياء هي الأجسام الأولية، والمواد الخام للكيمياء.

وقال الدكتور زكي نجيب محمود في كتاب «جابر بن حيان» الكيموي العالم صفحة ٤٦: «نجد جابر بن حيان يصرح في أكثر من موضع أن مصدر علمه هو النبي وعلي بن أبي طالب وجعفر الصادق، وما بين هؤلاء جميعاً من أبناء الأسرة الشريفة. فهو يقول: تأخذ من كتبي علم النبي وعلي وسيدي وما بينهم من أولاد منقولاً نقلاً مما كان وهو كائن، وما يكون من بعد إلى أن تقوم الساعة».

ومهما شككنا فأنا لا نشك في أن جابر بن حيان هو كيموي العرب الأول، وإنه تلميذ الإمام جعفر الصادق حفيد الإمام علي، وأن لجابر في هذا العلم أكثر من ٢٠٠ كتاب، وأن الكثير منها قد ترجم إلى اللاتينية والألمانية، وأن الغرب قد استفاد منها الشيء الكثير. ويصرح جابر ويقسم بأنه لا كثير له ولا قليل من علم الكيمياء إلا النقل عن الإمام وأبناء الإمام.

في النحو:

اتفق العلماء على أن الإمام هو الواضع الأول لعلم النحو، فعن أبي القاسم الزجاجي في أماليه عن أبي الأسود الدؤلي أنه قال: «ألقى الإمام إلي صحيفة فيها بسم الله الرحمن الرحيم: الكلام اسم وفعل وحرف، والإسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم

ولا فعل.. واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر»[1].

في الأخلاق:

ستتكلم بشيء من التفصيل عن الأخلاق عند الإمام ونكتفي هنا بالإشارة إلى ما نراه من أن أخلاق الناس تتكيف وتختلف باختلاف البلاد والأوطان، وهذا يتفق تماماً مع النظرية القائلة بأن دراسة أي إنسان دراسة حقة تستدعي دراسة بيئته وطبيعة الأرض التي عاش فيها، لأنها تؤثر تأثيراً فعالاً في أخلاقه وسيرته، وتولد فيه شعوراً خاصاً يتجه به اتجاهاً معيناً، ومهما تباينت أخلاق سكان الأرض الواحدة يظل بينهم قدر جامع، وقاسم مشترك.

قال الإمام: «إنما فرق بينهم مبادئ وطنهم، وذلك انهم كانوا فلقة من سبخ أرض وعذبها، وحزن تربة وسهلها، فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون، وعلى قدر اختلافها يتفاوتون».

في العلم والعلماء:

قال في تصنيف العلوم في زمانه، وبيان موضوعاتها: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان، والنجوم لمعرفة الزمان.

---

(١) قيل إن ما ليس بظاهر ولا مضمر هو اسم الإشارة. والصحيح أنه الكلام المحذوف كقوله تعالى: و﴿جاء ربك﴾ والمراد جاء أمر ربك، أما اسم الإشارة فيعد من الظاهر.

أما العلماء فقسمهم إلى ثلاثة أصناف:

١ ـ تعلم العلم للمراء والجدال.

٢ ـ تعلمه للاستطالة والحيل.

٣ ـ تعلمه للفقه والعمل.

أما الأول فإنك تراه ممارياً للرجال في أندية المقال، قد تسربل بالتخشع، وتخلى عن الورع، فدق الله حيزومه، وقطع منه خيشومه.

وأما الثاني فإنه يستطيل على أشباهه من أشكاله، ويتواضع للأغنياء من دونهم، فهو لحلوائهم هاضم، ولدينه حاطم[1] فأعمى الله بصره، ومحى من العلماء أثره.

وأما الثالث فتراه ذا كآبة وحزن، قام الليل في حندسه، وانحنى في برنسه، يعمل ويخشى، فشد الله أركانه، وأعطاه يوم القيامة أمانه.

وأقوال الإمام في هذا الباب لا يبلغها الإحصاء، والنية على أن نعقد لها فصلاً مستقلاً فيهذا الكتاب، كما سنعقد إن شاء الله فصولاً لأقواله ونظرياته التي تتصل بالإلهيات، والأمور الأخلاقية

(١) ولا شيء أبلغ وأوجز من وصفه لعالم السوء الذي آثر دنياه على آخرته من قوله، عليه أفضل الصلاة والسلام: فهو لحلواء الأغنياء هاضم، ولدينه حاطم. وفي الوقت نفسه يستطيل على العلماء والفضلاء. أعمى الله بصره، ومحى من بين العلماء أثره.

والسياسية والاجتماعية. . . ولا غرض لنا من الأمثلة التي ذكرناها في هذا الفصل سوى الإشارة إلى أن الإمام نظر إلى الحياة وأشيائها نظرة عامة شاملة، تتحرى الأسباب والبواعث، تماماً كما ينظر إليها الفلاسفة، على أنه من الصعوبة بمكان تعداد جميع الجهات التي اشتمل عليها كلام الإمام.

ويكفي للتدليل على أن علياً كان إمام الفلاسفة، ومرجعهم الأول، أن كل فيلسوف مسلم يدعي أنه أشار إلى وجهة نظره.

قال الأستاذ العقاد في كتاب «عبقرية الإمام»:

«ينفرد علي بخاصة لا يجاريه فيها إمام غيره، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية، منذ وجدت في صدر الإسلام، فهو منشئ هذه الفرق، أو قطبها الذي تدور عليه، وندرت فرقة في الإسلام لم يكن علي معلماً لها منذ نشأتها، أو لم يكن موضوعاً لها، ومحوراً لمباحثها، تقول فيه، وترد على القائلين. وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة، وعلماء الأدب والبلاغة، فهو أستاذ هؤلاء جميعاً بالسند الموصول».

وقال أيضاً:

«تبقى للإمام الهداية الأولى في التوحيد الإسلامي، والقضاء الإسلامي، والفقه الإسلامي، وعلم النحو العربي، وفن الكتابة العربية، مما يجوز لنا أن نسميه أساساً صالحاً لموسوعة المعارف

الإسلامية في جميع العصور، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الإسلامية كلها في الصدر الأول من الإسلام، وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التي تسجل له ثقافة الأمم عامة، كما تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية على تباين العصور».

نظرية المعرفة عند الإمام

هل المعرفة عند الإمام مجرد صورة الشيء الحاصلة عند العقل، سواء أأدت إلى العمل، أو لا، فمن علم ولم يعمل يقال له عالم، لأن جانب الأداء لم يؤخذ في مفهوم العلم، أو أن العمل جزء مقوم للمعرفة بحيث لا تتحقق إذا لم تقترن به: وتؤدي إليه؟.

ثم ما هو مصدر المعرفة؟ هل الحس والتجربة فقط، أو العقل فقط، أو هما معاً، أو هما والوحي؟ وبالتالي، هل الحدس الصوفي من أسباب المعرفة عند الإمام؟.

طبيعة المعرفة:

قال الواقعيون ـ وهم الذين يؤمنون بوجود عالم مستقل عن الإنسان وتفكيره ـ قالوا: «إن المعرفة بطبيعتها هي نفس الصورة الذهنية عن الشيء الموجود، والفكرة الصحيحة المطابقة له، ولا دخل للسلوك والعمل في معنى المعرفة».

وقال المثاليون ـ وهم الذين لا يعترفون بوجود شيء خارج

العقل ـ قالوا: «إن معرفة لاشيء ووجوده شيء واحد، وليس هناك اثنان ـ موجود في الخارج، وصورة عقلية عنه، بل كل ما في الوجود هو نفس الصورة العقلية، ولا شيء سواها».

وقال العمليون ـ المعبر عنهم في العصر الحديث بالبريجاماتيين ـ إن المعرفة هي أداة للعمل، فأية فكرة لا يترتب عليها محسوس فهي وهم؛ وليست بمعرفة سواء أطابقت الواقع، أو خالفته». وعليه يكون العمل جزءاً مقوماً لطبيعة المعرفة عند هؤلاء. وبكلمة أن مقياس صواب الفكرة عند الواقعيين أن تحيا في الذهن مطابقة للواقع، وإن لم تخرج إلى حيز العمل، وعند البرجماتيين أن تكون بمثابة الجزء الأخير للعلة التامة التي لا ينفك عنها العمل بحال.

وأشهر الفلاسفة الذين ناصروا هذه الفكرة، وأوضحوها هما الفيلسوفان الأميركيان وليم جميس (ت ١٩١٠) وجون ديوي (ت ١٩٥٢) وقد شاعت هذه الفكرة، وعدت مع الاكتشافات الحديثة التي تعبر عن حضارة القرن العشرين[١].

عند الإمام:

أما رأي الإمام فوسط بين الواقعيين، وبين البرجماتيين، لأنه قائم على أساس تقسيم المعرفة إلى قسمين: معرفة وضيعة لا

---

(١) انظر كتاب «الحكماء السبعة» تأليف «فان وسب» سيرة وليم جميس، وجون ديوي، ومجلة العربي عدد حزيران ١٩٦٣.

خير فيها، وهي التي لا يترتب على وجودها أي أثر، ومعرفة رفيعة وهي التي تنتج الخير والصلاح، قال: أوضع العلم ما وقف على اللسان، وأرفعه ما ظهر في الجوارح والأركان». وقال: «لا خير في علم لا ينفع».

وهذا هو الحق الذي تشهد له البديهة والوجدان لأنه بعد أن افترضنا وجود عالم مستقل عن الإنسان، ووجود صورة مطابقة للشيء الموجود، فلا يجوز بحال أن تتجاهل هذه الصورة المتحققة في نفس الأمر، أجل، إنها موجودة ما في ذلك ريب، ولكن لا خير فيها، تماماً كوجود الكتاب الذي لا يفتحه قارئ، والقلم الذي لا يكتب به كاتب، فكل من الكتاب والقلم موجودان بالفعل، ولكن وجودهما أشبه بعدمهما، لا أنهما غير موجودين من الأساس.

أجل، إن الصورة عن الشيء الحاصلة في العقل تذهب مع الريح إذا تركت وأهملت، ويصبح صاحبها جاهلاً بعد أن كان عالماً، كما لمسنا ذلك في كثير من خريجي الجامعات، وهو المراد من قول الإمام: «العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل».

مصدر المعرفة:

اختلف الفلاسفة منذ القديم، وما زالوا مختلفين فيما بينهم في أن هذه الكائنات الموجودة: هل هي بكاملها روحية لا تمت

إلى المادة بسبب، حتى الشمس والقمر والأرض وغيرها فإنها مظهر من مظاهر الروح، أو هي بكاملها مادية، وما يخيل إلينا أنه روح يستقل في حقيقته عن المادة، إن هو إلا مظهر من مظاهرها، فالمادة أصل، والروح فرع، أو أن لكل من الروح والمادة وجوداً مستقلاً، وطبيعة متميزة عن الأخرى؟.. ذهب إلى كل فريق.

وطبيعي أن يحصر الروحيون سبب المعرفة بالعقل وحده، إذ لا وجود عندهم للمادة، لتكون المشاهدة والتجربة طريقاً لمعرفتها، وأيضاً من الطبيعي أن ينحصر سبب المعرفة عند الماديين بالمشاهدة والتجربة فقط، حيث لا وجود مستقل للعقل عن المادة، يدرك به نفسه، وما حوله من الأشياء، وبالتالي يكون سبباً مستقلاً من أسباب العلم والمعرفة، كما أنه من الطبيعي عند الثنوية القائلين بأصالة الروح والمادة أن يكون كل من العقل والمشاهدة وسيلة للمعرفة.

فالبحث العلمي عند الروحيين يبدأ وينتهي بالعقل، وبه وحده تفسر الحقائق، وعند الماديين يحدد بالمشاهدة والتجربة، وعند الثنوية بهما معاً.

أما أهل الأديان، وفي طليعتهم الإمام فإنهم يؤمنون بمبادئ ثلاثة للوجود: الله، والروح، والمادة، وكل واحد منها مستقل، ومتميز عن الآخر، رغم تعلق الروح بالمادة، وافتقارهما إلى الله الموجود بالذات، وعليه فإن طرق المعرفة عند الإمام تتعدد بتعدد الموجودات الثلاثة، كل في حدوده، وضمن دائرته، فطريق

المعرفة إلى أشياء الطبيعة التي نلمسها بالمشاهدة والتجربة، والطريق إلى معرفة ما وراء الطبيعة العقل، ومتى أثبتناه بالعقل استطعنا أن نعتمد الوحي كسبيل إلى معرفة الأمور الدينية.

استدل الإمام على وجود الله بوجود الأرض والسماء، وما فيهما من التدبير المتقن، والنظام المحكم، ومعنى هذا أنه يؤمن بالوجود الموضوعي للكون الذي يدرك بالخبرة الحسية، ويؤمن بالعقل الذي يدرك ما وراء الكون بالاستنتاج، والانتقال من المعلوم إلى المجهول، ويؤمن بالله خالق الكون والعقل والحواس.

ومتى تأكدنا من إيمان الإمام بهذه المبادئ الثلاثة أدركنا ما هي نظرية المعرفة عنده. وإن شأن الحواس أن تدرك الظواهر والجزئيات فقط، وشأن العقل أن يستكشف ما يكمن وراء هذه الظواهر عن طريق الخبرة الحسية، وبالوحي ندرك ما تعجز الحواس عن مشاهدته، والعقل عن معرفته واستنتاجه، حيث لا توجد وسيلة للمشاهدة ولا للاستنتاج، فعلينا أن نميز بين كل واحد من هذه الأسباب الثلاثة ونضعه في مكانه فلا نثبت أو ننفي بالحس ما وراء المادة، أو نستند إلى العقل فيما يعجز عن اكتشافه، أما الوحي فإنه يحيط بكل شيء علما.

بقي سؤال، وهو هل يعتبر الإمام الحدس والاتصال المباشر وسيلة من وسائل الإدراك التي يركن إليها، كما هي الحال عند المتصوفة؟

ويتضح الجواب عن هذا السؤال في الفصل التالي الذي تتحدث فيه عن التصوف.

مكان العقل:

ومن الخير أن نشير بهذه المناسبة إلى سلطان العقل ومكانته عند الإمام.. مع العلم بأنه ليس في كلامه ما يشعر بتقسيم العقول إلى عشرة، ولا بأن النفس العاقلة واحدة في جميع البشر، أو متعددة بتعدد الأفراد، كما جاء في كلام الفلاسفة وبحوثهم. أجل، إنه قسم العقل إلى فطري، وهو علم الضروريات، والاستعداد لتفهم النظريات، وإلى مستفاد، وهو الذي ينمو بالدراسة والتجربة، قال:

رأيت العقل عقلين ... فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مطبوع ... إذا لم يك مسموع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

وأراد بهذا القول الترغيب في العلم وطلبه، وأن العقل يزكو بالمعارف واكتساب الخبرات، وأن الفطرة بمجردها لا تجدي نفعاً.. ومن أقواله في مدح العقل:

«لا غنى كالعقل، ولا فقر كالجهل.. لا عدة أنفع من العقل، ولا عدو أضر من الجهل.. كفاك من عقلك ما أوضح لك سبيل غيك من رشدك».

وقيل له: صف العاقل.

فقال: هو الذي يضع الأشياء في مواضعها.

فقالوا: صف لنا الجاهل.

قال: قد فعلت.

وحين عزم على المسير إلى الخوارج قال له بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم.

فقال: تزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء، وتخوف الساعة التي من سار فيها حاق به الضر؟.. من صدق بهذا فقد كذب القرآن.

إلى أن قال: أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر، فإنها تدعو إلى الكهانة.. المنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر والكافر في النار.

وقال دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. أي لا تعتمد إلا على الجزم واليقين.

وقال: العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء[1].

وهو يرى أن العين أصدق من السمع، وأن العقل أصدق من العين، فقد سئل عن الفرق بين الحق والباطل، فقال: «أما أنه

---

(١) شرحنا هذه الجملة شرحاً مفصلاً في كتاب (علي والقرآن).

ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع» فسئل عن معنى قوله هذا؟ فجمع أصابعه الأربع، ووضعها بين أذنه وعينه، وقال: «إن الباطل أن تقول: سمعت. والحق أن تقول: رأيت» أي أن ما تسمعه يحتاج إلى الشاهد والدليل، أما ما تراه فهو دليل بنفسه.

وقال قد تكذب العيون أهلها، ولا يغش العقل من انتصحه.

وهذا عين ما قاله الجاحظ فيما بعد: فلا تذهب إلى ما تريك العين، واذهب إلى ما يريك العقل. وما قاله الغزالي في كتاب «المنقذ من الضلال»: من أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر، وهي ترى الظل واقفاً، مع أنه متحرك، وترى الكوكب في مقدار الدينار، مع أنه أكبر من الأرض. وما قاله العقليون: إن الحواس يحتمل فيها الخطأ، وانها تخدع صاحبها، فتنقل إليه الشيء على غير صورته الحقيقية، فكم مرة رأى المسافر عبر الصحراء ما ظنه ماء، وهو سراب، ورأت العين ما ظنه الرائي رجلاً، وهو ليس برجل.

وكفى شاهداً على عظمة العقل وخطره عند الإمام قوله: عالم ينتفع بعلمه أفضل من عبادة سبعين ألف عابد وزاهد. وقوله: لو جعلت الدنيا لقمة لطالب العلم لكانت قليلة في حقه، ولو أخذ الجاهل لقمة واحدة من الدنيا لكانت كثيرة في حقه.

وما أشاد الإمام بالعقل والعلم هذه الإشادة، ومجّده هذا التمجيد إلا لأنه السبيل إلى سعادة الدارين.. وبديهة أن الغرب لم يسبق الشرق، ويسيطر عليه، وعلى مقدراته، لأن لديه من

الكنائس والقلانس أكثر مما عندنا من المساجد والعمائم، ولا لأن نسخ الإنجيل المطبوعة تفوق نسخ القرآن.. وإنما سبق وتقدم بالعقل والعلم.. ومن هنا كان فضل العلم والعقل عند الإمام أعظم من الزهد والعبادة.

ألف باب من العلم:

قال الإمام: «إن رسول الله علمني ألف باب من العلم يفتح لي كل باب ألف باب».

وهذا القول محل للتساؤل، ومظنة للريبة عند كثيرين. كيف يكون العلم الواحد، أو الباب الواحد من العلم مفتاحاً لكثير من العلوم؟

ولكن هذا ما اعترف به العلم الحديث.. إن العلم ليس أمراً مستقلاً عن الإنسان، بل هو موجود في عقله وشعوره، فإذا ما تهيأ لإنسان عامل دؤوب اتخذ منه أداة للتوصل إلى علوم أخرى. قال العالم الروسي المعاصر «الجاكوب»: «كما أن العلم يساهم في صنع الإنسان، كذلك الإنسان يساهم في صنع العلم.. إن حقيقة العلم هي القوانين التي نراها خلال الواقع»[1] أي أن معرفتك بالواقع تقدم لك الدلالات والتفاصيل عن أشياء أخرى، حتى إذا علمت بهذه الأشياء فتحت لك أبواباً لغيرها من

(١) من مقال في مجلة العلوم البيروتية عدد حزيران سنة ١٩٦٣ بعنوان: «المعنى العام للعلم».

المعلومات، وهكذا إلى ما لا نهاية، على شريطة أن تواصل النشاط العملي، وإلا فإن مجرد العلم بدون ممارسة لا يلبث أن يزول كما قدمنا.

وقال الفيلسوف الصيني «يولانج» في كتاب «النشاط العملي» تعريب الأستاذ محمد عيتاني: «إن النشاط العملي يمضي بنا إلى المعرفة، ثم يكون لدينا مجدداً النشاط العملي، فالمعرفة، وهذه الدورة مستمرة لا نهاية لها في تكرارها الدولي».

وبالتالي، فإن الاستمرار في العمل والنضال يجعل من الإنسان ينبوعاً يتفجر بالحكمة والمعارف، بخاصة بعد أن أثبتت التجارب أن الأشياء متشابكة، يرتبط بعضها ببعض، وأن كل شيء فيه كل شيء.

التصوف:

تحدثت في كتاب «نظرات في التصوف والكرامات» عن الاتحاد والحلول، ووحدة الوجود، وعن الزهد، وما إلى ذلك.. والذي أحاوله هنا هو الإشارة إلى رأي الإمام فيما يتصل بهذه المظاهر.

الاتحاد والحلول:

نفى الإمام عن الله سبحانه الاتحاد والحلول، وهو يعدد في خطبه صفات الجلال والكمال، فمن أقواله: «ولا أن الأشياء تحويه، أو أن شيئاً يحمله فيميله أو يعدله، وليس في الأشياء

بوالج، ولا عنها بخارج.. مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة.. لم يقرب من الأشياء بالالتصاق، ولم يبعد عنها بافتراق».

وهذا رد صريح على من قال من الصوفية: إن الإنسان يتحد بالله، أو أن الله يحل بالإنسان. ومعنى قوله: «مع كل شيء لا بمقارنة» إنه تعالى عالم بكل شيء دون أن يكون مقارناً وملاصقاً له، لأن المقارنة والملاصقة من صفات الأجسام، والله منزه عنها، ومعنى قوله «غير كل شيء لا بمزايلة» إن ذاته تعالى تغاير الأشياء، ولكن لا كتغاير الأجسام التي إذا وجد أحدها في حيِّز زال منه الآخر، لأن الله ليس بجسم، ولا يضاده شيء ولا يعانده شيء، فهو غير الأشياء في حقيقته، ومعها في علمه وعنايته، وافتقارها إليه.

وحدة الوجود:

أما وحدة الوجود فهي أبعد شيء عن أقوال الإمام، لأن معنى هذه الوحدة ـ كما فهمتها ـ أن الموجود واحد لا تعدد فيه، ولا تقسيم إلى واجب وممكن، وقديم وحديث، وعلة ومعلول، ولا إلى مادة وروح، ولا إلى وجود طبيعي، ووجود خارج الطبيعة، وإنما هو واحد من جميع جهاته، وهو أبدي أزلي لا يحول ولا يزول.. وبكلمة، أن مذهب وحدة الوجود لا يميز بين الله والعالم، ولا بين الخالق والمخلوق، وهو أشنع المذاهب الإلحادية على الإطلاق.. وقد أسلفنا أن مبادئ الوجود عند

الإمام ثلاثة: الله، والروح، والمادة.

الحدس:

قدمنا أن سبب المعرفة عند الماديين المشاهدة والتجربة، وعند العقليين العقل، وعند الثنوية هما معاً، وعند الإمام الوحي، والعقل، والحس.

وقال المتصوفة: إن الله لا يعرف بالحس، ولا بالعقل، ولا بمعلم أو كتاب، وإنما يعرف بالحدس، أي بشعور القلب شعوراً مباشراً بدون حاجة إلى القول: إن هذا الموجود له سبب، ولسببه سبب، إلى أن تنتهي سلسلة الأسباب إلى واجب الوجود بالذات، وما إلى ذلك من الاستنتاج والمقاييس، لأن شعور القلب يحل محل العقل وقياسه واستنتاجه.

ويزعم الصوفية أن هذه المعرفة تتولد في القلب تلقائياً، أو يقذفها الله فيه قذفاً بعد وصول الإنسان إلى حالة خاصة يبلغها بالرياضيات، والتحرر من الأهواء والشهوات، والاتجاه إلى الحق وحده.

ولست أدري لماذا يذهب الصوفية إلى هذه التمحلات، مع العلم بأن الإنسان يدرك وجود خالقه من نفسه، ومن جميع ما حوله من الكائنات والمخلوقات؟.. اللهم إلا أن ينكروا مبدأ السببية من الأساس، وانه لا شيء يكون سبباً لشيء، أو مسبباً عنه.

أقوال الإمام:

وقول الإمام: الحمد لله الدال على قدمه بحدوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده. وقوله هو الذي يشهد له أعلام الوجود، وما إلى ذاك، أن قوله هذا يخالف كل المخالفة القائلين بالحدس والاتصال المباشر.. أجل، إن صفات الفضيلة متكافل متضامن بعضها مع بعض، فمن كان مخلصاً في مقاصده، صادقاً في أقواله وأفعاله شمله الله بعنايته، وأرشده إلى سبيل الحق والهداية، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ١٩].. كما أن صفات الرذيلة يقود بعضها بعضاً: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٦]..

سؤال:

ورب سائل: ما معنى قول من قال: إن علم الإمام بالله يرجع إلى فطرته التي فطره الله عليها، لا إلى الآثار وأعلام الظهور، وان استدلاله على وجود الله بوجود مخلوقاته إنما كان لإقناع المشككين، وهداية الجاهلين.. أليس هذا اعتراف بمبدأ الحدس الذي قال به الصوفية؟

الجواب:

إن هذا رد ونقض لقول القائلين بالحدس، فهو لهم لا عليهم، لأن الخلق والتكوين على الاعتراف بالفطرة شيء، وقذف العلم بالقلب بعد المجاهدة الطويلة شيء آخر.. إن جميع النفوس

قد فطرت على الإيمان بالله، لا نفس علي فحسب، وإنما انحرف عن هذه الفطرة من انحرف لعارض التربية والبيئة، كما جاء في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه يهودانه أو ينصرانه».. وكما نطقت الآية ١٧١ من سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾.

والفرق بين الإمام وغيره أن الإمام بقي على فطرة الله متغلباً على جميع المغريات والمؤثرات، حتى لقي ربه. أما غيره فقد كيفته الظروف وعوامل البيئة.. وأين هذا من العلم الذي يقذفه الله في قلوب الخواص بعد أن يمروا بأدوار ومراحل؟

الزهد:

لست أحاول هنا التحدث عن زهد الإمام فقد عقدت له فصلاً مستقلاً بعنوان «دنيا علي» في كتاب «فضائل الإمام علي» وإنما غرضي أن أذكر أموراً ثلاثة هي: نظر الإمام إلى الدنيا، ورأيه في بعض المتزهدين، وبعض فقرات من أدعيته ومناجاته مع تحليلها.

الدنيا:

ذم الإمام الدنيا، وزهّد فيها، وحذر منها، وأمر بالعمل للآخرة، حتى كأننا نموت غداً، وفي الوقت نفسه مدحها وأثنى عليها، وأمر بالعمل فيها، حتى كأننا نعيش أبداً.. والسر في ذلك

أن الإمام، وإن وصف الدنيا بأنها ممر ومجاز إلا أنها ليست كطريقنا هذا الذي نمر فيه إلى البيت أو السوق أو الحقل، أو إلى أي بلد، ليست كهذا الطريق لا يغير شيئاً مما ننتهي إليه، ولا يمت إلى حقيقته بصلة.. فإن البيت هو هو على حاله وحقيقته، سواء أكان الممر إليه ضيقاً أو واسعاً، سهلاً أو وعراً، طويلاً أو قصيراً، وسواء أفعلنا حين المرور الخير أو الشر.. أما ممرنا في هذه الحياة إلى الحياة الثانية فإنه يؤثر كل التأثير في الحياة الأخرى التي ننتهي إليها، فإن سعادة الإنسان ترتبط بكيفية سلوكه في هذا الطريق، وعلمه بالأحكام وعمله بها، تماماً كما لو نظم السير بقانون مع معاقبة المخالف، فمن التزم نجا، ومن خالف عوقب.

هذا من جهة النظرة إلى الآخرة، أما حث الإمام على العمل في الدنيا فإن الهدف منه الاحتفاظ بالنوع، وسعادة المجتمع، وأن يعيش كل فرد من أفراده عيشة راضية، وإن قصر الأمد، لأن حياة البؤس والشقاء تقود إلى المعاصي والآثام.. فالمراد ـ إذن ـ من الدنيا المذمومة هي التي تكون وسيلة للبلاء والويلات، ومن الدنيا المحمودة التي تكون سبيلاً للهناء والخيرات.

قال الإمام وقد سمع رجلاً يذم الدنيا:

«أيها الذام للدنيا المغتر بغرورها المخدوع بأباطيلها، ثم تذمها! أتغتر بالدنيا، ثم تذمها؟!.. أنت المتجرم عليها، أم هي

المتجرمة عليك؟ متى استهوتك، أم متى غرتك؟ أبمصارع آبائك من البلى، أم بمضاجع أمهاتك تحتى الثرى؟ كم عللت بكفيك؟ وكم مرضت بيديك؟ تبغي لهم الشفاء، وتستوصف لهم الأطباء، لم ينفع أحدهم إشفاقك ولم تسعفه بطلبتك، ولم تدفع عنه بقوتك، قد مثلت لك به الدنيا نفسك، وبمصرعه مصرعك.

«إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن أتعظ بها، مسجد أحباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتَّجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها، وقد آذنت ببينها، ونادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها، فمثلت لهم ببلائها البلاء، وشوقتهم بسرورها إلى السرور، راحت بعافية، وابتكرت بفجيعة، ترغيباً وترهيباً وتخويفاً وتحذيراً، فذمها رجال غداة الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة، ذكرتهم الدنيا فتذكروا، وحدثتهم فصدقوا، ووعظتهم فاتعظوا».

وأقف قليلاً عند قوله: «أنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك؟».

كلنا يعلم أن المجرم هو الذي يظهر في غير مخبره، فيرائي، وينافق، ويمكر، ويخدع، ويعطي من ظاهره ما يمنع من باطنه. والدنيا قد برزت على حقيقتها، ولم تخف على أحد صفة من صفاتها، ففي كل لحظة تعطيك ألف عظة وعظة، وتقدم لك ألواناً من العبر، وتحذرك بكل أسلوب، وأية عظة للدنيا أبلغ من

أن نحفر فيها لأجسامنا المقابر والحفائر؟..

بعض المتزهدين:

قال الإمام يصف بعض من تظاهر بالزهد في الدنيا بعد أن زهدت فيه:

«ومنهم من أقعدته عن طلب الملك ضؤولة نفسه، وانقطاع سببه، فقصرت الحال عن حاله، فتحلى باسم القناعة، وتزين بلباس أهل الزهادة، وليس من ذلك في مراح ولا في مغدى».

وإذا لم يكن هذا القول بالشيء الجديد فإن مكان العظة فيه أن تتثبت، ولا تتعجل الحكم على الناس بالظواهر قبل البحث عن الدوافع والأسباب، وإلا وقعنا في الخطأ والجهل، والخلط بين الرذيلة والفضيلة، بين المنافق الذي طلب الدنيا بكل سبيل، ولما يئس تعبد وتزهد، وبين المخلص الذي أعرض عنها بقلبه، ومحا أثرها من نفسه.. لقد اعتدنا أن ننخدع بالظواهر، وتتأثر بالألوان دون أن ننظر إلى ما يكمن وراءها، فنبهنا الإمام بالإشارة إلى مكان المرائين والمزيفين.

المناجاة:

قال الإمام:

«إلهي إن كنت لا ترحم إلا للمجدّين في طاعتك فإلى من يفزع المقصرون؟ وإن كنت لا تقبل إلا من المجتهدين فإلى من

يلتجئ المخطئون؟ وإن كنت لا ترحم إلا أهل الإحسان فكيف يصنع المسيئون؟ أتدل على خيرك السائل، ثم تمنعه، وأنت الكريم المحمود في كل ما تصنعه يا ذا الجلال والإكرام؟».

إن وجود اليوم الآخر أثبت وأقوى من وجود يومنا هذا، إن هذا اليوم زائل كالأمس، أما يوم الحياة الثانية فثابت لا يزول، ودائم لا يحول، وليس فيه بيّن ومستتر، وظاهر وباطن، وكذب وصدق، بل كل ما فيه معروف ومكشوف، وإذا استطاع اليوم أن يمكر المذنب المسيء، ويخدع ويراوغ، ويحلف الإيمان ويقيم البينات، ويجد من يحميه ويدافع عنه، ويحابيه فإن الحاكم غداً لا يقضي بالبينات والإيمان، والمحاكم لا يجد محامياً ولا وسيلة إلا الاعتراف والاستسلام، حيث يبرز عمله للعيان على حقيقته، تماماً كمن يؤخذ بالجرم المشهود.

وهنا يتجه هذا السؤال: هل يترك هذا الضعيف وذنبه، في حين لا يجد ملجأ ولا وسيلة إلا الله؟.. إن الله شديد العقاب ما في ذلك ريب.. والمذنب قد فعل ما فعل بسوء اختياره من غير شك، ولكن هل اشتدت نقمة الله على هذا المسكين، حتى بلغت مبلغاً لا أمل معه للعفو والصفح، تماماً كما تبلغ الحدة والعصبية بأحدنا حداً لا يملك معه نفسه وعقله؟.. قولاً بلا تشبيه...

ويعطينا الإمام الجواب الشافي عن هذا السؤال، فإن قوله «إلى من يفزع المقصرون؟. وإلى من يلتجئ المخطئون؟.» معناه أن المذنب بعد أن يبلغ الخوف منه كل مبلغ، ويستشعر من نفسه

الخزي والمذلة، والبعد عن منزلة المقربين، وأن خصمه جبار الأرض والسموات، بعد هذا كله وما إليه لا يترك أبداً بدون ملجأ يلجأ ليه، ومستجير يستجيره.. والمفروض أنه لا ملجأ ولا مجير إلا الله، فالنتيجة الحتمية أن الله يقبل المذنبين والمسيئين، وإلا ظلوا بلا مجير، وهو خلاف الغرض.. وأوضح من هذا في الدلالة قوله عليه أفضل الصلوات وأزكى التحيات: «إلهي لو طبقت ذنوبي بين السماء والأرض، وخرقت النجوم، وبلغت أسفل الثرى، ما ردني اليأس عن توقع غفرانك، ولا صرفني القنوط عن انتظار رضوانك» وإذا كانت أرجى آية في القرآن الكريم الآية ٥٣ من سورة الزمر: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ فإن أرجى قول قاله نبي أو ولي عارف بالله وأحكامه هو هذا القول.

ثم أية غرابة في ذلك؟.. ألم يصف الله نفسه بالعفو؟.. فإذا لم يعف ويصفح لا يبقى لهذا الوصف معنى يدل عليه.. والآن تعال لنقرأ معاً هذه الحجة البالغة من الإمام: «إلهي إن قصرت بنا مساعينا عن استحقاق نظرك، فما قصرت رحمتك بنا عن دفاع نقمتك». أي أن المذنب من حيث هو مذنب لا يستحق النظر والعناية من الله، ولكن الله من حيث أنه الغفور الرحيم لا بد أن يشمل المذنب برحمته وغفرانه.. ولو تركه وشأنه، وأوكله إلى نفسه لحق لنا أن نتساءل ونقول: أين رحمة الله التي وسعت كل شيء؟

ولنفترض أن رجلاً أساء إليك، ثم رأيته في حالة تكاد تودي بحياته، فتجاهلته، وأنت قادر على عونه ودفع الأذى عنه دون أن تُمس بسوء أنت أو أهلك أو مالك أو كرامتك، وفي الوقت نفسه تكون متفضلاً ومحسناً عند الله والناس لو أعنته... فهل تكون كريماً لو تركته، والحالة هذه؟.. بل هل تكون إنساناً؟.. فكيف بالله الذي قال عنه النبي ﷺ: «إنه أرأف بعبده من الوالدة بولدها»؟ وليس من شك أن الأم لا تتهاون بولدها، وإن بلغ به العقوق ما بلغ...

ثم إن الله سبحانه أمرنا بالعرف والإحسان فكيف يحرمنا منه؟ قال الإمام: «إلهي أمرت بالمعروف، وأنت أولى به من المأمورين».

هذا، إلى أن الإنسان لا يخلو أن يكون في واقعه إما مطيعاً وإما عاصياً.. ومن صفات الله سبحانه العدل والرحمة، وبعدله يكرم المطيعين. وبرحمته يعفو عن العاصين.

قال الإمام:

«اللهم اجعلني عبداً لك، إما طائعاً فأكرمتني، وإما عاصياً فرحمتني». وقال: «الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله».

وهنا تظهر مقدرة الفقيه الداعي إلى الله.. فلقد حدده الإمام بهذا القول، ووضعه على الخط الفاصل بين غضب الله ورحمته،

وأوقفه في أحرج المواقف وأدقها، تماماً كمن يسير على صراط أدق من الشعرة، وأحد من السيف، إن انحرف قليلاً يمنة أو يسرة هلك وأهلك..

إن الفقيه الخبير هو الذي يُري الناس غضب الله بعين، ويُريهم رحمته بالثانية، يريهم غضب الله ليخشى ويتواضع المحسنون، ولا يحبط العجب أعمالهم، ولا يقف الغرور بهم، حيث ما انتهوا إليه من الإحسان، ويريهم رحمة الله، ليرجع المسيئون عن إساءتهم، ويتوبوا إلى ربهم، ولا يعيشوا في قلق واضطراب، ولا يندفعوا وراء المعاصي يائسين، ومرددين مع القائل: أنا الغريق فلا أخشى من البلل.

لقد كان الإمام يرجو الله ويخافه في آن واحد.. كان يأمل، وهو خائف، أن يصرف الله عنه شر مما يخاف، وكان يخاف، وهو راج، أن يقف فيما يحذر. قال: «إلهي أرجوك رجاء من يخافك، وأخافك خوف من يرجوك.. إلهي انتظرت عفوك كما ينتظر المذنبون، ولست آيساً من رحمتك التي يتوقعها المحسنون».

وبهذا المبدأ، مبدأ الجمع بين الخوف والرجاء، نفسر إخلاص الإمام وعظمته، وتواضعه، ونظره إلى نفسه على أنها ليست شيئاً يستأهل الكرامة إلا على ساس الخوف من الله سبحانه. قال: «إلهي إن أخطأت النظر لنفسي بما فيه كرامتها، فقد أصبت طريق الفزع إليك بما فيه سلامتها». فالمقياس الوحيد

الذي تقاس به كرامة الإنسان، حتى الأنبياء والأولياء، هو الخوف من الله، ولا شيء سواه، حتى العلم والعمل فإنهما ليسا بشيء إذا لم يكونا بهذا الدافع، ولهذه الغاية.

وبالتالي، فإن تصوف الإمام - إن صح التعبير - هو المعرفة بالله، والإخلاص له، والخوف من عقابه، ورجاء ثوابه، والانقطاع إليه بالزهد والعبادة، والإيمان بأن الخير منه وبتوفيقه، والشر بخذلانه وإيكال المرء إلى نفسه، أما الحدس والكشف والفناء والاتحاد والحلول، ووحدة الوجود، وما إلى ذلك من الشطحات فثرثرة فارغة، وسفسطة جوفاء.

في الإلهيات

الإلهيات

تدور أقوال الإمام على ما يهم الإنسانية ويصلحها من دين وأخلاق وعلم وسياسة واجتماع، ويعتمد في أقواله أول ما يعتمد على العقل الذي أمر الله ورسوله باتباعه، بخاصة في الألوهية التي عقدنا لها هذا الفصل.

المسلمون في عهد النبي:

لم ترو الرواة أن أحداً من أصحاب النبيﷺ سأله عن ذات الله تعالى، ومعنى صفاته.. وكيف يهتمون بتنزيه الخالق، وبالأمس كانوا يعبدون الأحجار، ويخشونها ويتقونها.. فلقد اكتفوا بما قاله الرسول، وما فهموه من ظاهر القرآن من أن الله جل وعلا واحد كريم، وعادل حكيم، وقادر رحيم، اكتفوا وآمنوا من غير تعليل وتأويل.

ومن حاول التوسع، وسأل عن شيء من المغيبات صرفه القرآن والرسول إلى جهة ثانية، كما دلت الآية الكريمة: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، لذا انصرفوا عن

الحديث حول العقيدة، وسألوا عن الأعمال، كالجهاد وثوابه، والصوم ومفطراته، والحج وأجزائه، والصلاة وشروطها، والزكاة ونصابها، وما إلى ذاك من الحلال والحرام.

وطبيعي أن يصرف النبي أصحابه عن الجدل في العقيدة لأنهم أمة أمية حديثة عهد بالإسلام، فالخوض في هذا المضمار يحيد بهم عن القصد.. أما أهل الأديان الأخرى فقد جادلهم بالتي هي أحسن، وبقدر ما تستدعيه الحاجة والضرورة، على أنه كان يدع الجدال معهم بعد أن يقيم لهم الدليل، وتلزمهم الحجة:

﴿وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحج: ٦٨]. ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾.

ورأى النبي بعض أصحابه يتكلمون في القدر، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بخوضهم في هذا».

ومن هنا كان إذا عرض لبعض المسلمين شيء من التشكيك والوسوسة ظن بنفسه الكفر والهلاك.

جاء في الحديث أن رجلاً أتى النبي، وقال: إني هلكت يا رسول الله. فقال له: أتاك الخبيث ـ أي الشيطان ـ فقال لك: من خلقك؟ فقلت: الله. فقال: من خلق الله؟ فقال الرجل: أي والذي بعثك بالحق هكذا قال.. فقال النبي: هذا والله محض الإيمان. فإن عرض لك مثل هذا فقل: آمنت بالله ورسوله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. أي امض على إيمانك، واقبله معرضاً عن كل ما يخطر لك.

المسلمون بعد النبي:

وبعد النبي كثر الجدل والتساؤل حول العقيدة، وكان الإمام المرجع الأول لحل جميع المشكلات والمعضلات، والفيصل بين الحق والباطل، فلقد كان يسأل ويجيب بالهدى والحق، من ذلك أن سائلاً سأله: هل رأيت ربك؟ قال: ما أعبد رباً لم أره. قال: وكيف رأيته؟ قال: لا تدركه العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان.

وسأله آخر: هل عرفت الله بمحمد، أو عرفت محمداً بالله؟

فقال: بل عرفت محمداً بالله عز وجل حين خلقه، وأحدث الحدود من طول وعرض.

وقال له ثالث: صف لنا الله، حتى كأنا نراه. فخطب الخطبة المعروفة بخطبة الأشباح، وقال عنها الشريف: هي من جلائل خطبه.

وغير بعيد ما قيل: إن هذه التساؤلات وما إليها تسربت إلى المسلمين العرب بعد الفتوح الإسلامية، واختلاطهم بأهل الأديان..

ومهما يكن، فقد بدأت بعد الرسول الرغبة في التحقيق والتعليل، والرجوع إلى العقل فيما دل عليه القرآن والحديث.

الدفاع عن الدين بالعقل:

ورحب الإمام بهذا الاتجاه الجديد، وأفسح المجال لكل

سائل ومشكك بل كان يتنفس الصعداء، ويتحرق أسفاً حين لا يجد من يحمل عنه، ويستفيد من علمه، ويقول على المنبر: «سلوني، فإن بين جوانحي علماً جماً هاه هاه لا أجد من يحمله».

وسأله سائل يوم الجمل: أتقول يا أمير المؤمنين: إن الله واحد؟ فحمل عليه الناس، وقالوا: ألا ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسيم القلب؟.. فقال: دعوه، إن الذي يريده هو نريده نحن من القوم.. بهذا الأسلوب وما إليه كان يشجع الناس على البحث والسؤال، ولا يخشى على الإسلام ما دام هو القائم على حفظه، والمبين لحججه وأحكامه، والذاب عن حوزته وكيانه بالبراهين العقلية، والنظر المجرد.. فالإمام أول من دافع عن الإسلام بمنطق العقل، وأول من رد شبهات المضللين، وأقوال المشككين، وأول من وفق بين النقل والفلسفة، وأول الآيات المتشابهة بما يتفق مع العقل.

ولست أدري على أي شيء اعتمد من قال: إن المعتزلة هم الممثلون للنزعة العقلية في الإسلام، وانهم الدعاة الأول إلى تحرر العقل، وحرية الفكر، فإن كان لهم شيء من هذا فالفضل يعود إلى الإمام وحده.. قال المعتزلي ابن أبي الحديث: «إن أصحابنا المعتزلة ينتمون إلى واصل بن عطاء، وهو تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد، ومحمد تلميذ أبيه عليّ عليه السلام».

الله:

توجد - في كل عصر - فئة قليلة تنكر وجود الله، ولا تعترف به، وفئة أخرى تقف حائرة تطلب سواء السبيل، لأن معرفتها لم تبلغ الهداية والحق.

وفي كل عصر يقف الهداة العارفون لمناهضة أولئك، ودفع شبهاتهم وأضاليلهم، ولإرشاد هؤلاء إلى المعرفة وخلاصهم من ظلمة الحيرة والجهل، وخطب الإمام سيد الموحدين، ومواعظه كلها أو جلها تهدف إلى هذه الغاية بالذات، فإن كلامه بالتوحيد والعدل يتضمن الرد على كل معاند، والهداية لكل حائر يطلب المعرفة إلى الله عز وجل.

ولم يقل الإمام: إن الموجود ينقسم إلى واجب وممكن، وإن الأول أصل، والثاني فرع، ولم يعدد صفات كل منهما ولوازمه باللفظ الذي عبر به الفلاسفة وعلماء الكلام.. ولكنه قال: «الحمد لله الواحد المتفرد الذي لا من شيء كان، ولا من شيء خلق إلا وهو خاضع له».

أليس قوله هذا تقسيماً للموجود إلى خالق ومخلوق وتعبيراً ثانياً يرادف لفظ الواجب والممكن!.. ونفياً للزعم القائل إن الأشياء كلها قديمة، وللزعم الآخر بأنها حادثة.

وقال: كل شيء خاضع له، وكل شيء قائم به، أي يستمد وجوده من وجود الله سبحانه، فهو الأصل، وكل ما عداه فرع.

وقال الفلاسفة في تعريف الواجب الوجود أنه الموجود بالذات، ولا يفتقر وجوده إلى موجد، وقالوا في تعريف الممكن إن ذاته لا تقتضي وجوداً ولا عدماً، وإنه لا يوجد إلا بسبب موجب.

وقال الإمام في وصف الممكن: «وبكلمة الله قامت السموات، وقرت الأرضون، وثبتت الجبال الرواسي».

فكلمة الله سبحانه وإرادته سبب تام لإيجاد هذه الكائنات، أما هو فلا سبب له، لأنه واجب الوجود بالذات من جميع الجهات.

البراهين:

إن الهدف الأول للفيلسوف هو معرفة السبب البعيد، وعلة العلل، وبما أن السبيل الوحيد إلى هذه المعرفة هو العقل لفت القرآن الكريم الناس إلى الدلائل الكونية من خلق السموات والأرض، وما فيهما من عجائب المخلوقات، وأمرهم بإعمال العقل فيها، ليصلوا إلى معرفة الخالق عز وعلا، من ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران آية ١٩٠ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. وغيرها كثير، وعبر ابن رشد عن هذا النوع من التدليل بدليل العناية.

وقال اتباع الفلسفة اليونانية: إن الكون سلسلة من الحوادث، وكل حادث لا بد له من محدث، فللعالم ـ إذن ـ

محدث، وهو الله تبارك وتعالى.

هذي هي حجج القرآن، وحجج أهل الكلام لا فرق بينهما إلا في الأسلوب، أما النتيجة فواحدة، ونجد الأسلوبين في كلام الإمام، فمن الأول قوله: «الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه، والظاهر لقلوبهم بحجته» وقوله في وصف الطاووس:

«ترى بريشه ألواناً كثيرة متسقة، فالعجب والدهش أن الكل يتغذى من جسم واحد، فما الذي أوجد كثرة تلك الألوان في ريشه ببديع جمالها!.. فإن شبهته بما أنبتت الأرض قلت: جنى من زهرة كل ربيع، فهو كالأزاهير المبثوثة، وإذا تصفحت شعرة من شعرات قصبه ارتك حمرة وردية، وتارة خضرة زبرجدية، وأحياناً صفة عسجدية».

وفي قوله في وصف الجرادة: «خلق لها عينين حمراوين، وأسرج لها حدقتين قمراوين، وجعل لها السمع الخفي، وفتح لها الفم السوي، وجعل لها الحس القوي، ونابين بهما تقرض، ومنجلين[1] بهما تقبض، يرهبها الزراع في زرعهم، ولو أجلبوا بجمعهم، حتى ترد الحرث، وتقضي منه شهواتها، فتبارك الله الذي يسجد له من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً».

وقال في وصف الخفافيش: «يقبضها الضياء الباسط لكل شيء، ويبسطها الظلام القابض لكل حي، وكيف عشيت أعينها

(١) كنى بالمنجلين عن رجليها.

عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به؟.. فهي مسدلة الجفون بالنهار، وجاعلة الليل سراجاً.. فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً، والنهار سكناً وقرارا، وجعل لها أجنحة من لحمها، تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران غير ذوات ريش إلا أنك ترى مواضع العروق بينة، لها جناحان لم يرقّا فينشقا، ولم يغلظا فيثقلا، تطير وولدها لاصق بها، يقع إذا وقعت لا يفارقها، حتى تشتد أركانه، ويحمله للنهوض جناحه، ويعرف مذاهب عيشه، ومصالح نفسه، فسبحان البارئ لكل شيء على غير مثال خلا من غيره».

ومن الأسلوب الثاني قوله: «زعموا ـ أي الملحدون ـ أنهم كالنبات ما لهم زارع، ولا لاختلاف صورهم صانع، ولم يلجأوا إلى حجة فيما ادعوا، ولا تحقيق لما وعوا، وهل يكون بناء من غير بان، أو جناية من غير جان؟..».

ويستند هذا البرهان إلى مقدمتين: صغرى يقرها الحس، وهي أن هذا الكون بناء، لما فيه من النظام، وأحكام الصنعة، وكبرى تشتمل على مبدأ عام يقتضيه المنطق، وهي لكل بناء بان، فالنتيجة الحتمية أن لهذا الكون بانياً. وأسموا هذا البرهان بالعلة الفاعلة، وينسب إلى أفلاطون.

ولهم برهان آخر، أسموه برهان الحركة، وينسب إلى أرسطو وهذه صورته: إن في الكون حركة، ولكل متحرك محرك ـ إذن ـ لا بد من وجود محرك لا يتحرك، لاستحالة تسلسل العلل إلى ما لا نهاية.

وهذا البرهان في واقعه توضيح لما تضمنه البرهان السابق، ومهما يكن، فقد أشار الإمام إلى هذا الدليل بطريق أوسع وأوضح، حيث نفى عن الله سبحانه الحركة والسكون معاً، لأنهم من صفات الأجسام، قال:

«لا يجري عليه السكون والحركة، وكيف يجري عليه ما هو أجراه، ويعود فيه ما هو أبداه، ويحدث فيه ما هو أحدثه؟..».

إذ لو حدث فيه شيء من ذلك لاحتاج إلى محدث، فيدور أو يتسلسل، هذا إلى أن الحركة تستدعي الجهات كالوراء والإمام، وهي محال بالنسبة إليه تعالى.

إن أقوال الإمام هذه، وما إليها مما احتوت الدلالة على أن الله وحده هو الذي خلق العالم، سماءه وأرضه، وأوجده من العدم، ورتبه على هذا النظام البديع المحكم، إن أقواله هذه تهدف أول ما تهدف إلى زجر المعاندين، واقتناع المشككين، وهداية الجاهلين، وإقامة الحجة على كل ذي قلب، وإلى دفع الشبهات عن الإسلام وكتابه ونبيه. أما علم الإمام بالله، وتوحيده وإخلاصه فيرجع إلى فطرته التي فطره الله عليها، لا إلى الآثار وأعلام الظهور، إن هذه الآثار والدلائل لا تزيد الإمام شيئاً، ولا تفتح له باباً من أبواب المعرفة، ومن هنا قال: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً» وإذا رجع الإمام إلى الدلائل الكونية، فإنما يرجع إليها ليهدي بها الناس، أما هو فلا ترجع معرفته بالله إلى الاستدلال عليه بشيء من آثاره، لأنه عنده أظهر من كل شيء.

قال له قائل: بما عرفت ربك؟.

قال: بما عرفني من نفسه.

قال الرجل: وكيف ذلك؟.

قال الإمام: لا تشبهه صورة، ولا يحس بحواس، ولا يقاس بالناس.

إن الإمام يؤمن بالله إيماناً لا يشوبه شك، وهذا الإيمان لم يتسرب إليه من الحواس، ولا من القياس، بالناس، لأنه لم ير الله بذاته، كي يؤمن به عن طريق الحس، ولا يشبهه شيء كي يكون إيمانه ناشئاً عن القياس والتمثيل، فتعين ـ إذن ـ إن الله سبحانه هو الذي خلق الإمام على فطرة الدين والتوحيد.

ويؤيد هذا المعنى قوله: الحمد لله الملهم عباده حمده، الفاطر لهم على ربوبيته. وقريب من هذا كلام الفيلسوف الفرنسي ديكارت الذي استدل به على وجود الله، حيث قال: لا نستدل بهذا العالم المرئي على وجود إله، بل وجود الإله ضرورة للتدليل على وجود العالم الظاهر، لأن هذا العالم يمكن التشكيك فيه، للشك في معرفة الحواس، أما وجود فكرة واضحة عن الكامل المطلق، فلا يمكن الشك فيها بحال، بل هي بديهية بداهة أنا أفكر فأنا موجود[1].

---

(١) قال ديكارت: ان معنى الكامل سابق في معرفتنا على معنى الناقص، واننا نكتسب معنى الكامل من مشاهدتنا للناقص، فإن علمنا بشيء دون شيء نقص يستدعي وجود كامل يعلم كل شيء، وقدرتنا على شيء دون شيء نقص يستدعي وجود كامل قادر على كل شيء وهكذا.

وبالتالي فإن كل قول من أقوال الإمام في هذا الباب يرجع إلى كبرى تعبر عن مبدأ عام يدل عليه العقل، وصغرى تعبر عن حادث محسوس، ومن القضيتين يتألف قياس منطقي يلزمه لذاته قول آخر، وهذه بعينها طريقة الفلاسفة وأهل المنطق.

صفات الله

لم يختلف الفلاسفة المسلمون وعلماء الكلام في وجود الله سبحانه ونفي التعدد والتركيب عنه، ولا في عجز العقول عن إدراك ذاته، ومعرفة حقيقته، ولا في نسبة ما ورد في القرآن من الصفات إليه، كالحياة والقدرة والعلم، وما إلى ذلك من صفات الجلال والكمال، ولكنهم اختلفوا في أن هذه الصفات هل هي عين الذات أو غيرها، وأن السمع والبصر واليد، وما إلى ذلك مما يشعر ظاهره بالتجسيم هل يثبت له بنحو الحقيقة أو المجاز، كما اختلفوا في أن كلام الله مخلوق أو قديم، وأنه تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات، أو يعلمهما جميعاً، وأن رؤيته ممكنة أو محال، وأن الإنسان مختار أو مجبور، وأن الأنبياء معصومون قبل البعثة وبعدها، أو قبل البعثة فقط، وان المعاد يكون بالروح والجسم، أو بالجسم خاصة، إلى غير ذلك. . ومن تتبع خطب الإمام وحكمه ومواعظه التي أوردها مورد التمجيد والتنزيه لذات الله سبحانه يجد فيها الحل الصحيح لجميع هذه المشكلات، ولكل معضلة فلسفية، يجد حلها بالنظر المجرد والبراهين العقلية

التي اعتمدها الفلاسفة وعلماء الكلام من بعده.

ورب قائل: كيف يتعرض الإمام لهذه المشكلات وأمثالها، وهو القائل: «كل ما يتصور في الأوهام فالله تعالى على خلافه!».

قلنا في جوابه: أراد الإمام بقوله هذا أن تصور ذات الله على حقيقتها محال، أما وصفه بالصفات التي ذكرها القرآن، وكيفية نسبتها إليه سبحانه، فلا ضير فيه، قال حفيده الإمام الباقر: تكلموا في خلق الله، ولا تكلموا في الله - أي في ذاته - فإن الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلا تحيراً. وقال الإمام الصادق: من نظر في الله كيف هو هلك.

هل الصفات عين الذات؟

يرى الإمام والأئمة من أولاده وأحفاده أنه لا تعدد ولا تغاير بين صفات الله، وذاته القدسية، فهو قادر لا بقدرة زائدة تكون وساطة أو كالوساطة بها يخلق الأشياء، وعالم لا بشيء زائد يعلم به ما كان ويكون. وبكلمة، إن صفات الله سبحانه ليست أعراضاً زائدة على الذات، بحيث يكون هناك ذات وصفة تفتقر إليها الذات، ولا تستطيع العمل والقدرة، فكما أن الله سبحانه موجود لذاته كذلك هو قادر لذاته، عالم لذاته، حي لذاته، وبتعبير ثان أن ذاته هي وجود، وهي علم، وهي قدرة، وهي حياة.

قال الإمام الرضا: لا يجوز أن يكون الله خلق الأشياء

بالقدرة لأنك إذا قلت: خلق الأشياء بالقدرة فكأنك قد جعلت القدرة شيئاً غيره، وجعلتها آلة خلق بها الأشياء وهذا شرك.

وقال الإمام:

«أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله».

والمحصل من هذه الفقرات أن معنى الدين طاعة الله وامتثال أوامره ونواهيه، والطاعة فرع عن المعرفة، حيث لا عمل مع الجهل، والمعرفة على نوعين: ناقصة، وهي أن تعرف الله، ولا تعترف به، ومعرفة كاملة، وهي أن تعرف وتصدق قولاً وعملاً، وأيضاً التصديق بالله على نوعين: ناقص وهو أن تعترف بأن الله خالق الكون، ولكن تثبت له النظير والشبيه، وتصديق كامل، وهو أن تؤمن بأنه تعالى واحد لا شريك له. وأيضاً التوحيد على نوعين: ناقص وهو أن تؤمن بأنه واحد لكنه جسم أو غير ذلك مما لا يليق بعظمته تعالى وتام وهو الإيمان بالوحدانية المنزهة عن الجسمية والصفات الزائدة على الذات. لأن من وصف الله بصفة زائدة فقد قرنه بغيره في الوجود وضمه إلى سواه. والضم يستدعي التثنية والتركيب من أجزاء. ومن جزأ

الله فقد جهله لأنه اعتقد خلاف الواقع.

وعلى الإجمال أن المعرفة شرط في الطاعة، والتصديق شرط في كمال المعرفة، والتوحيد شرط في كمال التصديق، والإخلاص شرط في كمال التوحيد. وكمال الإخلاص لا يتحقق إلا باعتقاد وحدة الصفات والذات. إذ لا تغاير بينهما ولا حقيقة ولا اعتباراً.

وقال الإمام في التدليل على أن كلام الله مخلوق وليس بقديم: «إنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثله. لم يكن من قبل ذلك كائناً. ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً».

وقال في شمول علمه للكليات والجزئيات: «أحاط بالأشياء كلها علمه، وأتقنها صنعه. لم تغيره صروف الزمان، ولا يتكأده صنع شيء مهما كان.. قال لما شاء أن يكون فكان.. علمه بها قبل كونها كعلمه بها بعد تكوينها».

قال الفلاسفة: إن الله يعلم الكليات فقط. لأن الجزئيات تتغير وتتبدل. ولو علم الله بها للزم أن يتغير علمه ويتبدل تبعاً لها لأن العلم صورة مطابقة للمعلوم. مع أن علم الله ثابت على وتيرة واحدة. وليست له حال متجددة. وعليه يكون علمه بالجزئيات محالاً.

وقول الإمام يصلح للرد على هؤلاء، لأن المحصل منه أن التغيير والتبديل إنما هو بالمعلوم، أي بالجزئيات نفسها، لا

بالعلم بها، لأن الله سبحانه يعلم قبل وقوعها أنها ستقع، وأنها تتغير وتتبدل، فإذا حدثت فقد حدث ما كان معلوماً في الأزل، لا أن العلم حصل حين الحدوث، كما هي الحال بالنسبة إلينا نحن، وعليه يكون علمه بالشيء قبل وجوده تماماً كعلمه به حين يوجد.

ونقل الشيخ هادي كاشف الغطاء في «مستدرك نهج البلاغة» كلاماً للإمام يتضمن نفي الرؤية والتجسيم عن الله سبحانه، والزمان والمكان والأحوال، وأنه كان قبل كل شيء، وأنه خلق الأشياء لا من شيء، قال:

«ليس بشبح فيرى، ولا بجسم فيتجزأ، ولا بذي غاية فيتناهى، كان ولا أماكن تحمله أكنافها، ولا حملة ترفعه بقوتها، وما كان بعد أن لم يكن، بل حارت الأوهام أن تكيف المكيف للأشياء.. لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، ولا تقدره العقول، ولا تقع عليه الأوهام.. وأبعد منا لشبه من كل شبيه، لم يخلق الأشياء من أصول أزلية، ولا من أوائل كانت قبله أبدية».

أي ان الله سبحانه ليس بشبح محسوس، حتى يُرى بالحواس، ولا بجسم حتى يحتاج إلى مكان، ولا بمتناه حتى يحد بزمان، ولا مماثل له حتى تحيط به الأفكار والأوهام، ولا شيء كان قبله، أو معه، حتى يخلق الأشياء منه، وإنما خلق وصور وأتقن بقوله كن فيكون.

وبالتالي، فإن التوحيد في مذهب أهل البيت هو أن تصف الله سبحانه بما وصف به نفسه، وأن تتورع عن تشبيهه بأي شيء،

وعن تحديده بأي حد، لأنه أجل وأعظم من أن تبلغ كنهه العقول، ولأن الحد إنما يكون للحقائق المركبة من الجنس والفصل.

وسأله سائل: أين ربك؟.

فقال: إن الله عز وجل أين الأين، فلا أين له.

وسأله آخر: متى كان ربك؟.

فقال: ومتى لم يكن، حتى يقال: متى كان.

وفي هذا المعنى ما رواه صاحب «الكافي» في باب التوحيد أن رجلاً قال للنبي: أين ربك؟. فقال: هو في كل مكان، وليس في شيء من المكان المحدود. فقال الرجل: كيف هو؟ قال: كيف اصف ربي بالكيف، والكيف مخلوق؟. والله لا يوصف بخلقه.

هل الإنسان مسير أم مخير؟

لقد شغلت حرية الإنسان الفلاسفة وأهل الأديان منذ أقدم العصور وأبعدها، وما زالت تشغلهم، حتى اليوم، فلقد اختلف فيها اليهود بعضهم مع بعض، والمسيحيون فيما بينهم، والمسلمون كذلك، فذهبت فئة من كل أهل دين إلى أن الإنسان مغلوب على أمره، و حرية له في تصرفاته: ولا وجود لشيء من شخصيته، وإنما هو كريشة في مهب الريح.. وأكدت فئة أخرى من الأديان الثلاثة الحرية التامة للإنسان، والمسؤولية الكاملة في جميع تصرفاته وأفعاله.

وقال الإمام بحرية الإنسان مستدلاً بأنه «لو كان مسيراً لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، والأمر من الله والنهي ولم تكن لائمة لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء، ولا المسيء أولى بالذات من المحسن.. إن الله أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يرسل الرسل لعباً، ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً،

ولم يخلق السموات والأرض، وما بينهما باطلاً «ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار».

يريد الإمام أن الله سبحانه لم يقهر عباده على فعل الطاعة، ولا على اجتناب المعصية، ولو فعل ذلك لبطل الثواب والعقاب، لأن الفعل، والحال هذه مستند إلى الله لا إلى العبد.

ومعنى قوله «أمير تخييراً، ونهى تحذيراً» إن الله أراد من عباده أن يفعلوا الواجب، ويتركوا المحرم باختيارهم وإرادتهم، وحذرهم في النهي أنهم متى عصوا وخالفوا عذبهم وعاقبهم.

ومعنى قوله «لم يُعص مغلوباً» إن العبد إذا خالف وعصى لم يكن هو غالباً والله مغلوباً، لأنه سبحانه قادر على صده عن المعصية، ولكن تركه وشأنه ليكون قادراً مختاراً، وبالتالي مستحقاً للعقاب، وكذا إذا أطاع العبد وامتثل فإنه عز وجل لم يكرهه على الطاعة بل تركه واختياره، ليستحق الثواب بجدارة.

وسأل الإمام سائل عن معنى القضاء والقدر، فقال:

«الأمر بطاعة الله، والنهي عن معصيته، والتمكين من فعل الحسنة، وترك المعصية، والمعونة على القربة إلى الله، والخذلان لمن عصاه، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، كل ذلك قضاء الله في أفعالنا، وقدره في أعمالنا».

وعلى هذا يكون معنى القضاء الأمر والنهي، ومعنى القدر التمكين وإعطاء القدرة على الفعل والترك معاً، إذ لو قدر العبد

على أحدهما دون الآخر لكان ملجأ لا يستحق ثواباً ولا عقاباً.

وكتب الحجاج بن يوسف إلى الحسن البصري، وعمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وعامر الشعبي أن يذكروا له ما عندهم من العلم بالقضاء والقدر.

فكتب إليه الحسن البصري: إن من أحسن ما انتهى إلينا ما سمعته من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قال: أتظن أن الذي نهاك دهاك، إنما دهاك أسفلك وأعلاك، والله بريء من ذاك.. والمراد بأسفله وأعلاه أقواله وأفعاله.

وكتب إليه عمرو: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. لو كان الوزر في الأصل محتوماً كان الموزر في القصاص مظلوماً.

وكتب إليه واصل بن عطاء: أحسن ما سمعت في ذلك قول أمير المؤمنين علي: أيدلك الله على الطريق، ويأخذ عليك المضيق؟

وكتب إليه الشعبي: أحسن ما سمعت في ذلك قول أمير المؤمنين علي: كل ما استغفرت الله منه فهو منك، وكل ما حمدت الله عليه فهو منه تعالى[1].

ومن أوضح وأقرب إلى الفهم والفطرة ما قرأته في هذا الباب قول الإمام جعفر الصادق:

---

(١) تفسير صدر المتألهين باب الجبر والقدر.

«ما استطعت أن تلوم العبد عليه فهو من فعله، وما استطعت أن لا تلوم العبد عليه فهو من فعل الله.. يقول الله للعبد، لم عصيت؟ لم فسقت؟ لم شربت الخمر؟ لم زنيت؟ فهذا هو فعل العبد. ولا يقول: لم مرضت؟ لم قصرت؟ لم أنت أبيض أو أسود. لأنه من فعل الله في العبد».

هذا هو الدليل المباشر على وجود «حرية الإنسان» وهو دليل البديهة والوجدان، وواضح كل الوضوح.. بل لا يسمى هذا النوع دليلاً ولا برهاناً، لأنه يعتمد على المشاهدة والحس مباشرة بأن أفعال الإنسان على نوعين. منها ما يزن نتائجها بعقله، ويفعلها بإرادته، ويستطيع تعجيلها الآن، وإرجاءها إلى غد، كسفره إلى البلد الذي يريد، ولباسه للثوب الذي يشاء، وأكله للطعام الذي يختار، وما أشبه.

و«منها» ما لا يدخل في استطاعته وقدرته، كتنفسه ومرضه، وذكورية أولاده وأنوثتهم، وطول عمره أو قصره، وما إلى ذاك. ويسأل العبد عن النوع الأول، وعليه يستحق ثواباً أو عقاباً من الله سبحانه، ومدحاً أو ذماً من الناس، بل كثيراً ما يعود الإنسان على نفسه باللائمة، لأنه تعجل الأمر، ويتخذ من خيبته مرشداً وواعظاً. والنوع الثاني نتيجة أمور قهرية لا يسأل عنه الإنسان ولا يؤخذ به.

وعلى هذا الرأي ـ اليوم ـ أكثر المفكرين وأهل الأديان وكان عليه العارفون من السلف. وهو الحق الذي لا ريب فيه،

وكل ما يخالفه فهو نظريات فارغة، ومقاييس سفسطائية، لأنها تصادم الحس والمشاهدة.

سؤال:

ورب سائل: ماذا تصنع بقول الإمام: «إلهي خلقت لي جسماً وجعلت لي فيه آلات أطيعك بها وأعصيك، وأغضبك بها، وأرضيك، وجعلت لي من نفسي داعياً إلى الشهوات، وأسكنتني داراً ملئت من الآفات، وقلت لي: ازدجر، فبك أعتصم، وبك أحترز، وأستوفقك لما يرضيك، وأسأل سؤال من لا يحفيك».

إن ظاهر هذا القول يتفق مع المذهب الجبري القائل. إن الوجود بما فيه عبارة عن الحوادث التي يؤثر بعضها ببعض، وعن علل ومعلولات مترابطة متلازمة، لا ينفك شيء منها عن شيء، والإنسان بينها آلة خاضعة لمختلف المؤثرات الداخلية التي عبر عنها الإمام «بالشهوات» والخارجية التي عبر عنها «بالآفات».

الجواب:

أولاً: إن معنى القول بحرية الإنسان أن بعض أفعاله يصدر بإرادته واختياره، وهذا ثابت بالحس، ومتحقق بالوجدان، كما أسلفنا. أما أن يكون للإرادة أسباب قهرية توجهها، ودواع ضرورية تحدث عنها فخارج عما نحن فيه، إذ الكلام في الفعل المعبر عن الإرادة، لا في الإرادة نفسها، وما دام الفعل صادراً عن إرادة الإنسان فهو مريد ومخير، وليس بمكره ومسير، حتى

ولو انتهت إرادته إلى غير الاختيار. . إن كل ما في الكون لا بد أن ينتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى الله سبحانه كائناً ما كان أو من كان.

ثانياً: إن العادات والتقاليد العامة، والميول والشهوات الإنسانية ليست عللاً تامة للفعل، ولا أسباباً ضرورية تلجئ الإنسان الجاء إليه، وإلا لما وجد في التاريخ عباقرة ونوابغ قاوموا بيئتهم، وتمردوا على شهواتهم. . بل قد رأينا أفراداً - ليسوا أبطالاً ولا عباقرة - خالفوا ميولهم وعادات مجتمعهم. . فالزواج - مثلاً - تدعو إليه الشهوة والتقاليد الاجتماعية، ومع ذلك رفضه من رفضه بملء إرادته واختياره. كما أن الذين أقدموا عليه أقدموا، وهم مختارون. لأنهم لو شاءوا أحجموا عنه.

ثالثاً: إن قول الإمام «خلقت لي جسماً وجعلت لي فيه آلات أطيعك بها وأعصيك، وأغضبك وأرضيك الخ» يدل على مبدأ الحرية لا الإكراه. وذلك أن في الكون خيراً وشراً، وتكوين الإنسان يساعده على عمل الخير والشر على حد سواء، ولكن الله سبحانه أمره بترك هذا، وفعل ذاك، فإذا أطاع فقد أطاع، وهو قادر على المعصية، وإذا عصى فقد عصى، وهو قادر على الطاعة، وبهذا الاعتبار يكون مستطيعاً لا مجبوراً. . أجل، إن فعل الطاعات يحتاج إلى توفيق الله وعنايته، ولكن هذا التوفيق، وهذه العناية لا تبلغ حد القسر والاضطرار، ولذا سأل الإمام ربه تعالى أن يوفقه لما يرضيه، حيث قال: «واستوفقك لما

يرضيك.. فإن سؤالي لا يحيفك» أي أنه هين عندك، سهل لديك.

ورب قائل: لماذا أقدر الله سبحانه وتعالى على المعاصي، وهو لا يرتضيها؟.

الجواب: إن الله أقدر العبد عليها حذراً من الإلجاء، لأن المعصية إذا لم تكن مقدورة، وكان الإنسان مجبوراً على تركها لم يستحق ثواباً ولا عقاباً، ولا كان للجهاد والنضال في سبيل تلافي النقص والشر أي أثر، ولا لتقسيم الإنسان إلى طيب وخبيث ومخطئ ومصيب أي معنى.. لأن الناس جميعاً، والحال هذه، كريشة في مهب الريح، وخشبة في اليم.

الأنبياء

من هو النبي؟

النبي بشر يعبر عن إرادة الله عز وجل. «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى». ومن أنكر رسالته ورد عليه فقد أنكر الوحي، ورد على الله، والمؤمن الصالح هو الذي يصدق ما أنزل إليه، وينقاد لأمره ونهيه. «ومن يطع الله والرسول فقد فاز فوزاً عظيماً».

مهمة النبي:

ومهمة النبي أن يرشد الناس إلى ما فيه صلاحهم دنيا وآخرة. «رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور» وبالنبي تجب الحجة لله على خلقه، ولا يبقى لهم مجال للاعتذار، ولا للخروج عن المسؤولية سبيل.

طريق الوحي:

أما اتصال النبي بالله فمن طرق ثلاثة: الوحي يلقى في روع النبي وقلبه، والكلام يخلقه الله في الشجرة وما إليها، والملك يحمل الرسالات من الله إلى النبي، فيبلغها النبي بدوره إلى من أرسل إليهم، وقد أشارت الآية ٥١ من سورة الشورى إلى هذه المراتب الثلاث. ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾. وقيل أن النبي الذي ألقى الله الوحي في روعه هو داوود، والذي كلمه من وراء حجاب هو موسى، أما محمد فقد أرسل إليه رسولاً: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وكذلك رؤيا النبي فإنها مرتبة من مراتب الوحي، فلا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح.

الحاجة إلى الأنبياء:

يعتقد أهل الأديان كافة أن الناس يحتاجون إلى الأنبياء، تماماً كما يحتاجون إلى المهندسين والأطباء، ومن إليهم. أما الذين لا يدينون بدين فيسخرون من فكرة النبوة والوحي، ويستبعدون أن يتصل بالسماء رجل مثلهم، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق. ورد الله على هؤلاء بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

ومما استدل به أنصار الوحي على وجوب البعثة وإرسال الأنبياء بأنه بعد أن دلت البراهين على وجود خالق الكون، وانه منزه عن كل شبيه ومثيل وانه حكيم عالم بالمصالح والمفاسد والخير والشر، وان عقول الناس لا تساعدهم على معرفة ما يصلح معاشهم ومعادهم. لذا تحتم أن يرسل الله إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين، آمرين بالخير ناهين عن الشر، مرشدين إلى الله تعالى، وما يجب أن يُعرف من صفاته، مبلغين أوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، مبينين ما فرضه على الناس من عبادات، وقرره من معاملات. وما إلى ذاك مما يتصل بمهمة الأنبياء والمرسلين.

العصمة:

من الصفات الهامة في الأنبياء العصمة. وهي صفة تصونهم عن الوقوع في الخطأ في تلقي الوحي. بحيث يعونه كما هو. وعن الخطأ في التبليغ. فيلقونه إلى الناس تماماً كما تلقوه عن الله. وتصونهم أيضاً عن الوقوع في المعصية ليأتمروا بما أمروا وينتهوا عما نهوا. ولولا العصمة هذه لقلّت الثقة بهم، وانتفت الفائدة من بعثهم. وانتقض الغرض من إرشادهم.

وبكلمة أن النصوص الدينية بحد ذاتها جامدة لا حراك فيها وإنما تحيا بتطبيقها والعمل بها. وإذا لم يكن القائم على الدين والشريعة هو الدين والشريعة متجسمين في شخصه لم يتحقق الغرض المقصود. ومن هنا قال الإمام: ذاك القرآن الصامت، وأنا القرآن الناطق.. ولا معنى للعصمة وراء ذلك.

المعجزة:

ولا بد لكل نبي من معجزة تدل على نبوته، وتشهد له بالصدق والأمانة. ومن شروط المعجزة التي تظهر على يد النبي أن تكون خارقة للعادة مقصوداً بها التحدي. كمعجزة إبراهيم الذي لم تحرقه النار. وناقة صالح التي خرجت من الصخرة. وعصا موسى التي ابتلعت العصي والحبال. وإحياء الموتى على يد عيسى. والقرآن الذي نزل على محمد.

عند الإمام:

تكلم الإمام عن الإسلام بعامة وعن محمد بخاصة في مواعظه التي حث فيها على التقوى والاعتبار بالماضين. وقد تضمنت هذه المواعظ المبادئ التي ذكرناها. وغيرها مما يتصل بالرسول والرسالة فمن أقواله:

- واصطفى سبحانه من ولده - أي من ولد آدم - أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانيهم.

- بعث رسله بما خصهم من وحيه، وجعلهم حجة له على خلقه لئلا تجب الحجة لهم بترك الأعذار إليهم.

- اختار من خيار صفوته أمناء على وحيه.

- لم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، أو محجة قائمة.

فالنبي بشر من ولد آدم اختاره الله من بين خلقه وائتمنه على

وحيه، وأمره تبليغ رسالته إلى عباده لئلا يكون لهم على الله الحجة، وبديهي أن هذه الحجة لا تتم إلا مع العصمة عن الخطأ، وإلا احتاج الرسول المخطئ إلى رسول آخر يصحح خطأه ويردعه عنه ويتسلسل إلى ما لا نهاية.

وما دام القصد إلقاء الحجة وجب قيامها في كل زمان. وليس من الضروري أن تتمثل بالنبي فحسب، بل تتمثل أيضاً بكتاب منزّل من السماء، و«بحجة لازمة» وهي الإمام الذي ينوب عن النبي، أو «بمحجة قائمة» أي طريق العدل، وهو هنا الشريعة الواضحة.

قدم النبوة:

ومن أقواله في هذا الباب: «على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء».

أي ان دعوة الأنبياء وجدت منذ أقدم العصور، وآمن بها ملايين الملايين قديماً وحديثاً وتوارث هذا الإيمان الأجيال جيلاً بعد جيل، وحتى اليوم يؤمن أكثر سكان المعمورة بالأنبياء وتعاليمهم، وغير بعيد أن يأتي يوم تجتمع فيه كلمة الناس في الشرق والغرب على الإيمان والعمل بالفضيلة والعدالة، تماماً كما دعا إليها الأنبياء، ونزلت بها كتب السماء.

طهارة الآباء والأمهات:

اتفق المسلمون جميعاً على أن النبي، كل نبي، يعلو بفطرته

وعقله وعلمه وخلقه على جميع الناس في عصره، بعيداً كل البعد عما يشوه سمعته وسيرته، سليماً في بدنه عما تنبو عنه الأبصار، وتنفر منه الأذواق، وزاد الشيعة شرطاً آخر هو أن جميع آباء النبي يجب أن يكونوا مطهرين عن الشرك والعهر من لدن آدم إلى الأبوين الأخيرين، واستدلوا بأدلة منها قول الرسول الأعظمﷺ: «نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية» وقول الإمام في بعض خطب نهج البلاغة:

«تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام، كلما مضى منهم سلف قام منهم بدين الله خلف، حتى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمدﷺ فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعز الأرومات مغرساً، من الشجرة التي صدع منها أنبياءه، وانتخب منها أمناءه، عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر».

وقال في شأن محمد مع العرب: «إن الله بعث سيدنا محمداًﷺ نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شر دين، تسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم: الأصنام فيكم منصوبة، والآثام فيكم معصوبة» أي ثابتة.

وكفى دليلاً على جهل العرب، وضلالهم قبل محمد ما سجله عليهم القرآن الكريم الذي يؤمنون به إيمانهم بالله وأنفسهم، حيث قال عز من قائل في الآية ٢ من سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

الحياة بعد الموت

إن مسألة حياة الإنسان بعد موته شغلت البشرية منذ وجودها، حتى اليوم.. فقد تكلم عنها أرباب الأديان كأصل من أصول الدين والعقيدة، وبحثها الفلاسفة كنظرية يرجع في إثباتها أو نفيها إلى العقل، وأنكرها من أنكرها، مستبعداً أن يعود الإنسان إلى حالته الأولى، بعد أن يصبح تراباً وعظاماً.

ورد الله سبحانه على من ينكر البعث بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ .. ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ .. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. إلى غير هذه من الآيات.

وقال الإمام الذي يستقي آراءه وأقواله من الوحي:

«وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها، واختراعها، وكيف؟ ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها، وما كان من مراحها وسوائمها، وأصناف أسناخها

وأجناسها ومتبلدة أممها وأكياسها، على أحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها، ولا عرفت السبيل إلى إيجادها.. ورجعت خاسئة حسيرة».

وشرحت هذا الدليل في كتاب «فلسفة المبدأ والمعاد» شرحاً مفصلاً، واشرحه هنا بأسلوب آخر، وهو أن الذين ارتابوا في البعث لا سبب لارتيابهم إلا أن الطبيعة بذاتها عاجزة عن إعادة الإنسان كما كان بعد أن صار رميماً، لأن الطبيعة بما فيها من قوى غير مؤهل لتحويل عظام الإنسان وترابه إلى ما كان عليه من قبل، وإنما هي مؤهلة إلى تحويل ترابه إلى نبات، وما إلى ذاك مما يتولد ويترتب على قواها.. وبكلمة أن الطبيعة ليست سبباً لخلق الإنسان من جديد بعد موته، بل هي سبب لجعله تراباً أو نباتاً.

وهذا القول يصلح للرد على من يدعي بأن الطبيعة هي السبب الوحيد لإعادة الإنسان دون غيرها. أما إذا قلنا: إن سبب الإعادة هو بالذات سبب الابتداء، وان الذي أوجد الإنسان من قبل ولم يكن شيئاً، هو الذي سيعيده إلى الحياة ثانية. أما هذا القول فلا ينكره إلا من كابر الحس وعاند الوجدان، وإلا من ذهل حتى عن نفسه وأصل وجوده.. إن إعادة الإنسان بعد أن يصبح تراباً وعظاماً أهون بكثير ـ إن صح التعبير ـ من إيجاده من لا شيء.

ومن هنا اكتفى الإمام بهذه الإشارة للتدليل على أن اليوم

الآخرآت لا ريب فيه. وأطال في وصف أحواله وأهواله. ووجوب الاستعداد لحسابه، والنجاة من عقابه.. فمن أقواله:

واتقوا ناراً حرها شديد، وقعرها بعيد، وحليتها حديد، وشرابها صديد، ألا وان اللسان الصالح يجعله الله للمرء في الناس خيراً له من المال يورثه من لا يحمده».

ومنها في تقسيم الناس يوم الحساب إلى نوعين:

«فأما أهل طاعته فأثابهم بجواره، وخلدهم في داره حيث يظعن النزال، ولا تتغير بهم الحال، ولا تنوبهم الإفزاع، ولا تنالهم الأسقام ولا تعرض لهم الأخطار ولا تشخصهم ـ أي تزعجهم ـ الأسفار.

«وأما أهل المعية فأنزلهم شر دار، وغل الأيدي إلى الأعناق، وقرن النواصي بالأقدام، وألبسهم سرابيل القطران ومقطعات النيران في عذاب قد اشتد حره وباب قد أطبق على أهله، في نار لهم كلب ولجب، ولهب ساطع وقصيف هائل، لا يظعن مقيمها ولا يفادي أسيرهاولا تفصهم كبولها».

ومر على مقبرة فخاطب الأموات بقوله: «يا أهل الديار الموحشة. والمحال المقفرة. والقبور المظلمة. يا أهل التربة. يا أهل الغربة. يا أهل الوحدة. يا أهل الوحشة. أنتم لنا فرط سابق. ونحن لكم تبع لاحق. أما الدور فقد سكنت. وأما الأزواج فقد نكحت. وأما الأموال فقد قسمت.. هذا خبر ما

عندنا. فما خبر ما عندكم؟».

ثم قال: «أما والله لو أذن لهم في الكلام لأخبروكم أن خير الزاد التقوى».

وأقواله في هذا الباب لا يبلغها الاحصاء وهي تجمع بين منطق الوحي وزهد المسيح وبلاغة القرآن.

وإذا عرفنا أن أفعال الإمام تنسجم مع أقواله، كما صرح بذلك في قوله: «والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها» إذا عرفنا ذلك عرفنا أنه كان يزن جميع الأقوال والأعمال، وكل ما يتصل بهذه الحياة، يزنه في ميزان الآخرة، وفي تقوى الله لا المنافع الخاصة، حتى المصالح العامة هي خير لأنها الوسيلة إلى الله سبحانه، فحياة الآخرة عند الإمام ليست مسألة نظرية، وصحة عقيدة، وكفى. بل هي عملية قبل كل شيء، ووجودها أقوى وأتم وأكمل من موجودات عالمنا هذا المحسوس، وبالتالي فليس لدى الإمام من علاج لأدواء الأفراد والمجتمعات إلا التقوى والخوف من غضب الله وعقابه. أما الربح والكسب في هذه الحياة فليس بشيء وإلى هذا أشار قوله: «واعلموا أن ما نقص من الدنيا، وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة، وزاد في الدنيا. فكم من منقوص رابح، ومزيد خاسر، إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه. وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم، فذروا ما قل لما كثر، وما ضاق لما اتسع، قد تكفل لكم بالرزق وأمرتم بالعمل».

وربّ قائل يقول: إن هذه نظرة قديس مؤمن، لا نظرة فيلسوف عليم.

قلنا في جوابه: إن الفيلسوف هو الذي يبحث عن الأسباب، ويميز بين ما يؤدي منها إلى الخير، وما يكون وسيلة إلى الشر والويل، ويحذر من هذه. ويرغب في تلك، تماماً كما يفعل الطبيب، يبحث عن أسباب الداء، ويأمر بالوقاية منها. وقد رأى الإمام أن الإنسان لو عرف نفسه، وأطاع ربه، ووقف عند حده، ولم يطمع بغيره لا تنفى الشر من الأساس. واستؤصل الداء من الجذور، وارتاح الناس من مشاكل الحياة.. وليس من شك، في أنه لو نظر الإنسان، كل إنسان إلى أشياء هذه الحياة كما نظر إليها الإمام لعاش الناس في كل جيل اخواناً في الله، عاملين في سبيله موقنين بعنايته وكفالته.

ولأن هذه الدار ليست بشيء في نظر الإمام إلا مجازاً أو ممراً للآخرة، فقد فلسف اللذة والألم بأنهما إنما وجدا في هذه الحياة للتعريف بنعيم الجنة، وعذاب جهنم في اليوم الآخر. قال:

«أيها الناس إن الله تبارك وتعالى لما خلق خلقه أراد أن يكونوا على آداب رفيعة، وأخلاق شريفة، فعلم أنهم لم يكونوا كذلك إلا بأن يعرفهم ما لهم وما عليهم، والتعريف لا يكون إلا بالأمر والنهي، والأمر والنهي لا يجتمعان إلا بالوعد والوعيد، والوعد لا يكون إلا بالترغيب، والوعيد لا يكون إلا بالترهيب، والترغيب لا يكون إلا بما تشتهيه أنفسهم وتلذه أعينهم، والترهيب

لا يكون إلا بضد ذلك.

ثم خلقهم في داره، وأراهم طرفاً من اللذات، ليستدلوا به على ما وراءهم من اللذات الخالصة التي لا يشوبها ألم، ألا وهي الجنة، وأراهم طرفاً من الآلام ليستدلوا به على ما وراءهم من الآلام الخالصة التي لا يشوبها لذة، ألا وهي النار، فمن أجل ذلك ترون نعيم الدنيا مخلوطاً بمنحها وسرورها، ممزوجاً بدرها وغمومها».

يؤمن الشيعة بأصل يعبرون عنه بقاعدة اللطف[1] وهي أن الله سبحانه بعد أن يأمر بالخير، وينهى عن الشر، يوجد شيئاً آخر يقرب العبد من الطاعة، ويبعده عن المعصية. على أن لا يحمل العبد على الفعل قهراً عنه، بحيث يبلغ حد الإلجاء. بل هو مشوق ومرغب في الطاعة والامتثال. وهذا المشوق هو وعد المطيع بالثواب، ووعيد العاصي بالعقاب.

وكلام الإمام صريح بذلك حيث قال: «إن الله سبحانه لم يوجه الأمر والنهي لعباده. وكفى... بل وعدهم بالثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية، وفي الوعد تشويق وترغيب وباعث على عمل الخير، وفي الوعيد ترهيب وزاجر عن عمل

(١) رأيت كلمة الفيلسوف الغربي «اسبينوزا» هي تعبير ثان عن قاعدة اللطف التي قال بها الشيعة، قال هذا الفيلسوف: إن غرض الدين ليس تلقين العلم فقط، بل أخذ الناس بالطاعة وصالح الأعمال، أي بالمعرفة والعلم «مقام العقل عند العرب» لطوقان ص ١٨٥ طبعة ١٩٦٠.

الشر. ولكي يعرفوا عظمة الثواب الذي يكافأ به الطيبون، ووقع العذاب الذي يجزى به الخبيثون، أراهم في حياتهم هذه طرفاً من اللذات وطرفاً من الآلام ليقيسوا الغائب على الشاهد. وبالتالي، تتم لله عليهم الحجة من جميع الوجوه.

وكان أصحاب النبي يتسابقون للموت بين يديه حين يسمعون قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ حتى أن عمير بن الحمام لما بشره النبي بالجنة يوم أحد، وكان يأكل ثمرات، فألقاها من يده وقال: لئن أنا حييت حتى آكل ثمراتي هذه، إنها لحياة طويلة وما زال يقاتل حتى قتل. وكان الوالد يقتل ولده، والأخ أخاه من أجل رسول الله طمعاً في الجنة، وخوفاً من العذاب.

في الإنسان

الإنسان

كان الإنسان وما زال موضوعاً للدين والعلم والتشريع والطب والأدب والفن، وللحياة بكاملها، وكل أهل فن يتكلمون عن الناحية التي تدخل في اختصاصهم من الإنسان.

أما الفلاسفة فقد بحثوا في حقيقته. هل هي من روح وبدن، أو من بدن فقط؟.. وأطاعوا الكلام عن جوهر النفس وبساطتها وروحانيتها، وعن كيفية علاقتها بالبدن، وتكلموا عن مصدر الإنسان ومآله. من أي شيء خلق وتكوّن؟ وهل يحيا مرة ثانية بعد الموت، أو لا شيء سوى حياته الأولى؟ وتحدثوا عن غرائزه وتنوعها، وعن عقله، وحواسه الظاهرة والباطنة. ثم هل هو مختار في أفعاله، أم مسير إلى غير ذلك؟

أما كلام الإمام عن الإنسان، أو ما اطلعت أنا عليه من كلامه، فيتناول الجهات التالية:

١ ـ التعظيم من شأن العقل، وانه السبب الأول للمعرفة، وأن أي طريق من طرقها لا يعتبر شيئاً إذا لم يحكم العقل

بصحته، وأن كل ما يتنافى معه ويأباه فهو باطل وضلال. ونقلنا طرفاً من أقواله في ذلك في فصل «أسباب المعرفة عند الإمام».

٢ ـ إن الإنسان إذا صقل عقله بالعلم شارك السبع الشداد، وأتى بالعجب العجاب، وقال للشيء كن فيكون.

٣ ـ إن في الإنسان من الصفات والغرائز المتضاربة ما تجعله مجمع الأضداد، ومثال التناقض. فهو يقوى إلى حد يجعل معه طيور السماء ووحوش الأرض، وما فوقها وتحتها أطوع إليه من بنانه. ويضعف إلى حد تؤلمه البقة، وتقتله الشرقة، وتنتنه العرقة. ونقلنا في فصل «هل كان الإمام علي فيلسوفاً؟» ما قاله في وصف القلب، «إن سنح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع، أهلكه الحرص الخ».

٤ ـ إن الإنسان هو الغاية الأخيرة لهذه الموجودات، ومن أجله خلقت ووجدت. وعبر الإمام عن ذلك بقطعة جاءت أروع وأبلغ ما عرفته اللغات منذ وجودها: «فالله سبحانه قبل أن يخلق الإنسان خلق الكون، ورتبه أحسن ترتيب، ونظمه أجمل تنظيم، ومهد الأرض، وأتم مرافقها على أكمل الوجوه، فخلق فيها الهواء الطلق، وأجرى فيها العيون والأنهار، وأعد أنواع الأطعمة والأشربة، ومن كل الثمرات. وأنبت فيها النبات والزهر مختلفاً ألوانه، وزينها بزينة الكواكب مصابيح ترسل الأضواء والأنوار. وبعد أن أتمها، وجمع فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين أخرج إليها الإنسان وأسكنه فيها على أن يكون خليفته في أرضه يحيا في

كنفها، ويعيش في خيراتها. ويمضي في أقواله وأفعاله، ونيّاته ومقاصده وفق أحكام الله سبحانه وإرادته تماماً كرب الأسرة الذي يبني داراً واسعة شاسعة، مع حدائقها وساحاتها، وعيونها، ويؤثثها بأفخر الأثاث وأثمنه، ويملأها بالمؤونة الكافية الوافية. ثم يسكن فيها أهله وولده مطيعين شاكرين». قال في إحدى خطب النهج، وهي المعروفة بخطبة الأشباح:

«فجر ينابيع العيون من عرانين أنوفها[1] وفرقها في سهوب بيدها وأخاديدها. وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها.. وفسح بين الجو وبينها. وأعدل الهواء متنسماً لساكنها. وأخرج إليها أهلها على أتم مرافقها... في تبهج بزينة رياضها. وتزدهي بما ألبسته من ربط[2] أزاهيرها، وحلية ما سمطت به أنوارها[3] وجعل ذلك بلاغاً للأنام[4] ورزقاً للأنعام. وخرج الفجاج في آفاقها. وأقام المنار للسالكين على جوادّ طرقها».

ولا أحد أشقى ممن يذهل عن هذه النعم التي يعجز عن شكرها وأداء واجبها أعبد العابدين، وأطوع المطيعين.

٥ ـ القوى البدنية في الإنسان، وإنها كالقوى النفسية من حيث الحاجة إليها، والفوائد المترتبة عليها. فالسمع يعي

---

(١) العرنين ما صلب من عظم الأنف المراد به هنا أعالي الجبال.

(٢) الربط الثوب الرقيق.

(٣) السمط الخيط، أي أن الأزاهير منتظمة، حتى كأنها نظمت في خيط.

(٤) المراد بالبلاغ البلغة من القوت.

الأصوات، والبصر يعرف السبل والألوان، والجسم يجمع الأعضاء الملائمة التي تسهل الحركة وتعين على بلوغ الغاية. والعقول لتدبير الأرزاق والشؤون قال:

«جعل لكم أسماعاً، لتعي ما عناها، وأبصاراً لتجلو عن عشاها، وأشلاء جامعة لأعضائها، ملائمة لأحنائها، في تركيب صورها، ومدد عمرها، قائمة بأرفاقها، وقلوب رائدة لأرزاقها، في مجللات نعمه، وموجبات مننه، وحواجز عافيته، وقدر لكم أعماراً سترها عنكم. وخلف لكم عبراً من الماضي قبلكم».

نبه الإمام بقوله هذا إلى نعم الله تعالى على الإنسان بعقله وأعضائه. كما نبه من قبل على ما أوجد له من خيرات الأرض والسماء. أما الفائدة من جهل الإنسان بعمره ومدة حياته فلأنه لو علم ذلك لترك العمل. وترقب الموت وتحكم فيه اليأس. ولم يهنأ بعيش، فكان الخير كل الخير أن يحجب عنه مبلغ عمره، ومدى إقامته في هذه الدار.

٦ ـ لا صلة بين جسم الإنسان وروحه من حيث الحسن والقبح فقد يكون حسن المنظر، ولكنه ناقص العقل. وطويل القامة ولكنه قصير الهمة. وزاكي العمل ولكنه قبيح المنظر. ذلك أن الجسم يتكيف بحسب الأرض التي عاش عليها، وهي تختلف باختلاف البلدان والأوطان ولا يمكن تبديلها أو تعديلها. فلا يمكن بحال جعل القصير طويلاً، والأسود أبيض. أما الروح فإنها تنمو بالتربية والتعليم وتتهذب بالرياضيات والمجاهدات. قال الإمام:

«إنما فرق بينهم مبادئ أوطانهم، وذلك أنهم كانوا فلقة من سبخ الأرض وعذبها وحزن تربتها وسهلها.. فتام الرواء ناقص العقل. وماد القامة قصير الهمة. وزاكي العمل قبيح المنظر. وقريب القعر بعيد السبر».

وقال: «الناس ثلاثة: فعالم رباني. ومتعلم على سبيل نجاة. وهمج رعاع اتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح. لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق». وقال: «إذا أرذل الله عبداً حظر عليه العلم» فالأخلاق تتفاوت بسبب العلم والجهل، والأجسام تختلف باختلاف الأرض والتربة.

٧ ـ حياة الإنسان بعد الموت، وخلوده في الحياة الأخرى، وانه رهن بما كسبت يداه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وذكرنا ذلك في الفصل السابق.

٨ ـ أطوار الإنسان منذ بداية تكوينه حتى النفس الأخير، فأبو البشر خلق من الأرض مباشرة. أما نسله فقد توالدوا من نطفة جميع موادها من الأرض. ولكن الأرض منها الطيب وغير الطيب، والإنسان خلق من جميع قواها وعناصرها. قال:

«ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها. وعذبها وسبخها تربة سنها بالماء، حتى خلصت، ولاطها بالبلة، حتى لزبت. فجبل منها صورة ذات إحناء ووصول. وأعضاء وفصول. أجمدها حتى استمسكت. وأصلدها حتى صلصلت. لوقت معدود، وأمد معلوم. ثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنساناً ذا

أذهان يجيلها، وفكر يتصرف بها، وجوارح يختدمها، وأدوات يقلبها، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل والأذواق والمشام والألوان والأجناس، معجوناً بطينة الألوان المختلفة، والأشياء المؤتلفة، والأضداد المتعادية، والأخلاط المتباينة من الحر والبرد، والبلة والجمود».

أشار بهذا إلى أن آدم أبا البشر جمع في ابتداء خلقه وتكوينه، من عذب الأرض ومالحها، وغليظها وسهلها، ثم أصبح طيناً، ثم على هيئة الإنسان، له أعضاء ومفاصل، ثم صار الطين صلصالاً يابساً كالفخار، ثم إنساناً سوياً، له عقل يميز فيه بين الحقل والباطل، والضار والنافع، وذوق وسمع وبصر، وما إلى ذاك. وبالتالي، كان مخلوقاً عجيباً مؤلفاً من عناصر متضاربة لا يجمعها جامع غير الإنسان، ولا يحويها أحد سواه. ومن هنا خوطب الإنسان بهذا البيت:

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وقد نسب هذا البيت إلى الإمام، وإذا لم يكن هو قائله فقد أخذ من قوله.. ومهما يكن، فإنه يعبر عن حقيقة واقعة، وهي أن هذا الجسم الصغير المحدود الضيق يحتوي على قوة تسع كل شيء، ولا يسعها شيء، وتستطيع أن تفعل كل شيء، وتملك كل شيء في السموات والأرض، أما هي فلا يملكها سوى خالقها.

أما ابن آدم فقد تكوّن من النطفة التي مصدرها الأرض، ثم

ارتقى إلى علقة، إلى جنين، إلى رضيع، إلى وليد، إلى يافع، إلى رجل.

قال الإمام:

«أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام، وشغف الأستار، نطفة دهاقاً، وعلقة محاقاً، وجنيناً وراضعاً، ووليداً ويافعاً، ثم منحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، ليفهم معتبراً، ويقصر مزدجراً».

ما دام في الرحم فهو جنين، فإذا ولد فوليد، وما دام يرضع فرضيع، فإذا فطم ففطيم، فإذا مشى فدارج، فإذا سقطت أسنانه فمشغور، فإذا نبتت من جديد فمثغر، فإذا بلغ عشراً فمترعرع، فإذا كاد يبلغ الحلم فمراهق ويافع، فإذا احتلم فشاب إلى الأربعين، فإذا تجاوزها فكهل إلى الستين، وبعدها يكون شيخاً[1].

وهناك جهات أخرى تكلم عنها الإمام، سنعرض بعضها في الفصول التالية، وعلى أية حال، فإن الإمام يهتم أول ما يهتم بعمل الإنسان، بما يكون به مرضياً ومقبولاً عند الله، قريباً من رحمته وجنته، بعيداً عن عذابه ونقمته.. لأنه سبحانه لم يكلف

(١) قال الإمام: «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة». وأنا الآن في التاسعة والخمسين، واكتب هذه الكلمات في الهواء الطلق، والجو الهادئ الجميل بين الربيع وأزهاره، وإلى جانب النهر، وتحت أشجار الحور في بلدة «شتورة» بلبنان يوم السبت ٦ نيسان سنة ١٩٦٣.

أحداً البحث في كنهه، ولا التعمق في ماهيته، وإنما كلفه بصالح الأعمال، فإن أراد أحد الحديث عن الإنسان نفسه، فليقتصر على ما فيه عبرة وعظة، كأن يفكر من أي شيء وجد؟ وفي أية دار هو؟ وإلى أي مدى يستمر ويبقى؟ وإلى أية حفرة يسير؟ وكيف يحاسب؟ وبماذا يجازى ويكافأ؟.

وبالتالي، فإن الإمام لم ينظر إلى الإنسان كما نظر إليه الفلاسفة من أنه حيوان ناطق، أو روح وبدن، وإنما نظر إليه من الوجهة الأخلاقية العملية، وترك الرأي والنظر إلى سواه، ورأى أن حقيقة الإنسان وقيمته هي ما يحسنه من العلم والعمل، لذا اهتم في بيان ما ينبغي أن يكون عليه، كمسؤول عن نفسه وأسرته ومجتمعه، وعن مصيره ومآله.

وهذا ما نجده في المؤلفات الجديدة، ويدور على ألسنة وأقلام مفكري هذا العصر في الشرق والغرب، قال «غايتان بيكون» في كتاب «الأدب الفرنسي الجديد» ترجمة «نبيه صقر والأب الشمالي»: «لا يكتب محاولو اليوم كما كان يكتب محاولو الأمس عن معرفة الإنسان لذاته، واكتشاف طبيعته، بل يكتبون عن مصير الإنسان، وكيف يسعى إلى صنع هذا المصير..

إن مشاكل العمل هي التي يدور حولها الوجدان المعاصر، وهذا الوجدان هو نقد ونتائج النشاط البشري، ويبحث عن القيم».

المرأة

قال الإمام:

● معاشر الناس، إن النساء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقول، فأما نقصان إيمانهن فقعودهن عن الصلاة والصيام في أيام حيضهن[1]، وأما نقصان حظوظهن فمواريثهن على الأنصاف من مواريث الرجال، وأما نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد، فاتقوا شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر.

● المرأة شر كلها، وشر ما فيها أنه لا بد منها.

● المرأة عقرب حلوة اللسبة، أي اللدغة.

● إياك ومشاورة النساء، فإن رأيهن إلى أفن، وعزمهن إلى وهن، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن، فإن شدة الحجاب أبقى عليهن[2].

---

(١) واليوم تركن الصلاة والصيام، حتى أيام طهرهن.

(٢) من وصية له لابنه الإمام الحسن.

وقالت فئة لا نصيب لها من التحقيق والمحاكمة: «إن الإمام نظر إلى المرأة من خلال رأيه بعائشة صاحبة الجمل، حيث عارضت حكمه وخلافته، وألبت عليه الجموع، وجيشت الجيوش.. ولولا موقفها منه لم ينظر إلى المرأة هذه النظرة التي تحط من شأنها وتنقص من قدرها».

الجواب:

١ ـ إن معارضة عائشة وموقفها من الإمام ليس بأعظم من موقف طلحة والزبير اللذين بايعا، ثم نكثا البيعة، وحرضا عائشة على الخروج، وأركباها الجمل الذي خلع اسمه على تلك الوقعة، ولا بأعظم من موقف معاوية وابن العاص وغيرهما من القاسطين، ولا بأعظم من موقف الخوارج المارقين، ولو صح تفسير رأي الإمام في المرأة بكراهيته لعائشة التي فعلت ما فعلت.. لوجب أن يكون رأيه في الرجل، تماماً كرأيه في المرأة، لأن طلحة والزبير ومعاوية وابن العاص ومن لف لفهم فعلوا ما فعلت عائشة وزيادة.

٢ ـ جرت العادة أن يكره الإنسان ويحقد على القوي دون الضعيف، وعلى الغالب دون المغلوب، وعائشة كانت أسيرة ذليلة بين يدي الإمام، حتى قالت نادمة آسفة: «ليتني لم أكن ولم أخلق».

٣ ـ هل بلغ مدينة العلم من الغفلة والذهول حداً أصبح يقيس معه النوع على الفرد، والكل على الجزء، ويحكم على

طبيعة المرأة ومواهبها من خلال رأيه بصاحبة الجمل؟

٤ ـ متى كان لعلي الذي يدور معه الحق كيفما دار، شهوات وميول تتنافى مع الواقع، حتى يستمد آراءه منها، وينطق بوحيها؟.. أحين أكرم عائشة وأطلقها بعد الأسر، أو حين تمكن سيفه ذو الفقار من رقبة ابن العاص وبسر بن أرطاة فعفا عنهما، أو حين سقا الماء لأعدائه بعد أن منعوه منه؟..

أعلي بن أبي طالب ينظر إلى المرأة، ويحكم عليها أو على غيرها من خلال شخصيته، وما يتصل بها من قريب أو بعيد، وهو القائل: «أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة.. العفو زكاة الظفر» والقائل: «أحصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك». والقائل: «متى أشفي غضبي إذا غضبت؟.. أحين أعجز عن الانتقال، فيقال: لو صبرت؟ أو حين أقدر عليه، فيقال: لو غفرت»؟

وصدق الأستاذ جرداق حيث يقول:

«إذا كانت القوانين المتعارف عليها تسمح لابن أبي طالب بأن يحارب المتآمرين به، فإنه لا يفعل إلا بعد أن يراعي كل جوانب الحنان في نفسه وقلبه، وبعد أن يستثير كل روابط الاخاء البشري في نفس مقاتليه وقلوبهم... وهو إن فعل في خاتمة الأمر فإنما يفعل مكرهاً لا مختاراً، حزيناً باكياً لا فرحاً ضاحكاً، فإذا شعوره بالنصر بعد القتال آلم من شعور مناوئيه بالهزيمة».

٥ ـ إذا كان بغض عائشة أو حبها، يوحي بالنظرة العامة إلى المرأة فإن النبي كان يحب عائشة ـ على ما قيل ـ، وعليه ينبغي أن يكون رأيه في المرأة حسناً وعلى غير رأي الإمام، مع أنه نعتها بنفس الوصف الذي نعتها به الإمام. . فقد جاء في الجزء الأول من صحيح البخاري كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم ما نصه بالحرف الواحد:

«خرج رسول الله في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمر على النساء، فقال: يا معشر النساء، تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار. فقلن: بم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشيرة، ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن. قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله!؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل!. قلن: بلى. قال: فذاك من نقصان عقلها!. أليس إذا حاضت لم تصل، ولم تصم!. قلن: بلى. قال: ذاك من نقصان دينها».

هذا رأي من قيل: إنه كان يحب عائشة، وهو تماماً كرأي من قيل: إنه كان يبغضها. . وكأن الإمام قد نظر إلى الذين يقعون في هذه التناقضات، وما إليها، فخاطبهم بقوله: «إن أكثر الحق فيما تنكرون، واعذروا من لا حجة لكم عليه».

وحاول البعض أن يعتذر عن الإمام، ويحمل كلامه في المرأة على ما يتمشى مع العصر بزعمه، فأوله بأن الإمام قال ما قال، وهو لا يعني طبيعتها ومواهبها من حيث هي، وإنما أراد

تلك المرأة التي كانت أيام زمان، والتي أهملها الرجل، ولم يعتن بشأنها وتهذيبها.. ولو أفسح لها مجال العلم والعمل لم تفترق عنه في شيء، ولا امتاز هو عنها في شيء.

إن الركيزة الأولى لرأي الإمام في المرأة هو الإسلام بالذات، ولا شيء سواه، ونحن نعتقد أن الإسلام وصف المرأة من خلال سلوكها وتصرفاتها التي تصدر عن طبيعتها وفطرتها.

والآن نعرض ما جاء عن المرأة في الإسلام، لتتضح نقطة البداية التي انطلقت منها أقوال الإمام وآراؤه في المرأة، كما هو شأنه في جميع أقواله وأفكاره.

جاء في الآية ٢٨ من سورة يوسف: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وهذه الجملة وإن كانت حكاية لقول العزيز إلا أنها تشعر بحقيقة المرأة، وبخاصة إذا لاحظنا قصة يوسف بمجموعها.

ومن الطريف قول بعضهم: إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، حيث وصف الله كيد الشيطان بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ووصف كيد النساء بأنه عظيم..

وجاء في الآية ٣٣ من سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.

وفي الحديث: «شاوروهن وخالفوهن.. ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» ومر حديث ناقصات العقول والإيمان عن صحيح البخاري.

هذا، إلى أن فقهاء الإسلام قد أفتوا مستندين إلى المصادر الإسلامية بما يلي:

١ ـ إن دية المرأة نصف دية الرجل، فمن قتل رجلاً عمداً فديته ألف دينار، ومن قتل امرأة فديتها ٥٠٠[١].

٢ ـ الطلاق بيد الزوج دون الزوجة.

٣ ـ ليس لها أن تمتنع عن الفراش، ولا أن تخرج من بيته إلا برضاه، وله أن يفعل ما يشاء.

٤ ـ لا تجب عليها صلاة الجمعة، حتى ولو تحققت الشروط الموجبة بالنسبة إلى الرجال.

٥ ـ لا يجوز لها أن تتولى الإمرة ولا القضاء.

٦ ـ لا يجوز أن تكون إماماً في الصلاة للرجال، ويجوز للرجل أن يكون إماماً للنساء.

٧ ـ لا تقبل شهادتها في غير الأموال لا منفردة، ولا منضمة إلى الرجال إلا في مسألة الولادة، وتقبل في الأموال منضمة إلى الرجال، على أن تكون شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد.

---

(١) ألف دينار تبلغ ثلاث كيلوات ونصف و٢٩ غراماً من الذهب الخالص وقدرها بعضهم بخمسمئة ليرة عثمانية.

٨ ـ للأنثى من الميراث سهم، وللذكر سهمان.

٩ ـ عليها أن تستر عن الرجال الأجانب شعرها، وجميع بدنها ما عدا الوجه والكفين، ولا يجب على الرجل أن يستر عن النساء سوى القبل والدبر.

١٠ ـ لا جهاد عليها، ولا جزية، ولا تقتل في الحرب ما لم تقاتل. ولذا قال الشاعر:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

١١ ـ لا تشارك الأم الأب في الولاية على وليدهما الصغير في الزواج ولا التصرف في أمواله ويستقل هو في جميع ذلك.

١٢ ـ لا تصح معها المسابقة والرماية(١).

١٣ ـ أفتى الفقهاء بأن من قتل إنساناً عن خطأ لا عمد تحمل الدية عن القاتل من يتقرب إليه بالأب، كالأخوة والأعمام وأولادهم، ويسمون هؤلاء بالعاقلة، ولا تدخل المرأة معهم.

١٤ ـ إذا قتلت امرأة رجلاً قتلت به بلا شرط، وإذا قتل رجل امرأة فلا يقتل بها إلا بعد أن يدفع وليها نصف الدية لورثة القاتل.

وبعد أن اتضح بهذه الأرقام مكانة المرأة في الإسلام فلا يبقى مجال للقول بأن الإمام نظر إليها من خلال معارضة عائشة

---

(١) المسابقة أن يتسابق اثنان على الخيل أو ما إليها على أن يكون للسابق جعل معين، والرماية أن يرميا إلى هدف معين على أن يأخذ الجعل من يصيب الهدف.

له، وموقفها منه.. إن أقوال الإمام وآراءه وواقعه هو واقع الإسلام وأقواله هي أقوال القرآن لا يفترقان أبداً، حتى يرد الحوض على رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث الشريف.

وبالتالي، فإن الإمام لم يخلق لنفسه، وإنما وجد وخلق ليمثل الإسلام على حقيقته، فإذا فكر، أو قال، أو فعل فلا يخرج في جميع ذلك عن دائرة الإسلام.

وليس من شك أن الإسلام حرر المرأة مما كانت فيه، واعتبرها إنساناً بعد أن كانت حيواناً أو متاعاً عند أكثر الأمم أو الكثير منها، لا عند العرب فحسب.

قال الفيلسوف اللإنكليزي الشهير المعاصر «برتراند راسل» في كتاب «السلطان» ترجمة خيري حماد ص ٢٥٨ طبعة ١٩٦٢: «يقول القديس بولس: «إن الرجل هو صورة الله ومجده، وأما المرأة فهي مجد الرجل، لأن الرجل ليس من المرأة، بل المرأة من الرجل، ولم يخلق لأجل المرأة، بل المرأة خلقت لأجل الرجل ـ فصل ١١ ـ آية ٧ ـ ٩».

وقيل إن شريعة حمورابي هي أفضل الشرائع السابقة وخيرها فيما يتعلق بالمرأة وحقوقها، وقد نصت هذه الشريعة على أن الرجل لو ضرب ابنة رجل آخر، وكانت حبلى، فماتت من وقع الضربة تعدم ابنة الضارب.. ومعنى هذا أن البنت مجرد سلعة يملكها الأب، وتنتزع منه عقوبة له حين يرتكب نوعاً من الجرائم.

ويكفي للتدليل على مكانة المرأة في الإسلام إن أنصارها يلجأون دائماً إلى القرآن، وأحاديث الرسول، ليعززوا أقوالهم، ويفحموا خصومهم.. وكون المرأة إنساناً لها مثل الذي عليها لا يمنع أبداً أن يكون الرجل حاميها وعائلها، وأعرف منها في كثير من أمور الدين والدنيا، وأوفر نصيباً في بعض المواهب.

وأود أن أوجه للذين يدعون أن للمرأة كل ما للرجل من صفات خلقية، أوجه إليهم هذين السؤالين:

لو خيرت المرأة - بوجه العموم - بين أن تكون محترمة ذات مكانة ووجاهة، وبين أن تكون مثيرة للشهوات، فأيهما تختار؟

ثم هل عانت البشرية في تاريخها الطويل من الرجل، كما عانت من المرأة؟ هل عرف التاريخ أن الرجل، بما هو رجل، أثار الحروب والفتن والمفاسد لأسباب جنسية، كما أثارتها المرأة، بما هي امرأة؟

فكم حطمت من عروش وأودت بصروح، وأراقت من دماء؟ لا لشيء إلا من أجل شهواتها، وإشباع رغباتها؟

أنا الآن أكتب هذه الكلمة - ١٨/٦/١٩٦٣ - والصحف والإذاعات في شغل شاغل بعاهرة ظهرت في انكلترا تسمى «كريستين كيلر» اتصلت في آن واحد بوزير الحربية «جون بروفيومو» وبالملحق البحري الروسي، وبثلاثة أمراء من البيت المالك، ويزيد دخلها في الشهر ٢٥ مرة عما يتقاضاه رئيس

الوزراء، و٢٥٠ مرة عما يتقاضاه النائب، و٥٠٠ مرة عما يتقاضاه رجل الدين. . ، وحدثت بسببها مشكلة كبرى هزت بريطانيا من أقصاها إلى أقصاها، وشغلت مجلس العموم أياماً وأسابيع، وأودت أو كادت بوزارة ماكميلان، رئيس وزراء بريطانيا، إذ أظهرت الدلائل أن لعلاقاتها الغرامية بوزير الحربية والملحق الروسي في آن واحد أسباباً تتصل بأمن البلاد.

وقد أثبتت التجارب أن المرأة خير أداة للتجسس والتخريب، وكسب المال الحرام، والإغراء بالغدر والخيانة والفسق والفجور. ومن هنا عبر عنها الحديث الشريف بحبائل الشيطان، وشبكة إبليس.

وبالتالي، فإن من تتبع المصادر الإسلامية يرى الإسلام نظر إلى المرأة نظره إلى الضعيف القوي الذي يستطيع الدفاع عن نفسه. ومن هنا شبهها بالقوارير، وأوصى الرجل أن يرحمها ويرفق بها. . هذي هي الحقيقة، ومن نسب إلى الإسلام غيرها فقد نسب إليه ما لا يعلم. . إما بقصد صالح، وإما أنه يهدف إلى حل مشكلات الشباب المراهقين عن طريق الاختلاط بالعاريات المائلات.

احتجاج الإمام على خصومه

ذكرنا في فصل سابق مقام العقل عند الإمام، ونذكر هنا أمثلة من اعتماده عليه في حجاجه ونقاشه مع خصومه السياسيين.

مع أبي بكر:

وهب رسول الله ﷺ ابنته فاطمة الزهراء فدكاً، فاستثمرتها وتصرفت بها في حياته، وبعد أن تمت البيعة لأبي بكر انتزعها من ابنة الرسول مدعياً أنها ملك للمسلمين.

فقالت له: لم تمنعني نحلة أبي، وقد جعلها لي بأمر الله؟

قال: هاتي شهوداً على ذلك.

فقال الإمام لأبي بكر: هل تحكم فينا بغير حكم الله في المسلمين؟

قال أبو بكر: لا.

قال الإمام: إن كان في يد المسلمين شيء يملكونه، وادعيته أنا لنفسي، فمن تسأل البينة؟

فقال أبو بكر: إياك أسأل.

قال الإمام: إذن، كيف سألت البينة من فاطمة على ما في يدها، ولم تسأل المسلمين البينة، كما سألتني على ما ادعيت؟

فسكت أبو بكر، وقال عمر: دعنا من كلامك يا علي، فإنا لا نقوى على حجتك.

وكيف يقوى على الحجة من يطلب البينة من شخص مدعياً كان أو مدعى عليه؟ إن الإمام استدرج أبا بكر إلى الاعتراف بأن البينة على من ادعى على الغير، ثم ألزمه الحجة بأنه طلبها من الإمام المدعى عليه، لا من الغير المدعي...

وفي ذات يوم خلا أبو بكر بالإمام، وقال له: ما لك تضمر عليّ ما لا استحقه منك؟.. فوالله ما كان الأمر لرغبة مني فيه، ولا لحرص عليه.

فقال له الإمام: إذن، ما الذي حملك عليه ما دمت لا ترغب فيه، ولا تحرص عليه؟

قال أبو بكر: اجتمعت الأمة عليّ، والرسول يقول: «لا تجتمع الأمة على ضلال».

قال امام: ألست أنا وسائر بني هاشم، وسلمان أبو ذر وعمار والمقداد، والزبير وسعد بن عبادة ومن معه من الأنصار، أليس هؤلاء جميعاً من الأمة، وقد تخلفوا عن بيعتك؟

فسكت أبو بكر، ولم يجد الجواب.

يدعي أبو بكر أنه خليفة الرسول، والقائم الحافظ لشريعته، واحتج لخلافته بالإجماع، فأبطل الإمام حجته بكلمة تفيض بالقوة والإفحام، حيث قال لأبي بكر: كيف تدعي الإجماع، وقد خالف كثير من الأصحاب؟ وكيف تكون حافظاً لشريعة محمد، وهو القائل: البينة على المدعي، وأنت تطلبها من المدعى عليه؟

مع الزبير:

قال الإمام للزبير: إن أصحاب الجمل ملعونون على لسان محمد، وقد خاب من افترى.

قال الزبير: كيف نكون ملعونين، ونحن من أصحاب الجنة؟

قال الإمام: لو علمت أنكم منها ما قاتلتكم.

قال الزبير: روى سعيد بن عمرو بن نفيل عن رسول الله أن عشرة من قريش في الجنة.

قال الإمام: إن سعيداً حدث بهذا عثمان أيام خلافته. ثم سأله من هم العشرة؟

قال الزبير: أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة وسعيد بن عمرو بن نفيل، أي راوي الحديث.

قال الإمام: هؤلاء تسعة، فمن العاشر؟

قال الزبير: أنت.

قال الإمام: لقد أقررت على نفسك بأني من أهل الجنة، وهذه حجتي عليك... أما دعواك لنفسك فأنا بها من الجاحدين.

قال الزبير: أترى سعيداً كذب على رسول الله.

قال الإمام: ما أراه كذب، ولكنه والله اليقين. إذا قلت لآخر «لك علي عشرة، ولكن لي عليك مثلها» تؤخذ بإقرارك على نفسك، ويحكم عليك بأن تدفع العشرة، عملاً بمبدأ إقرار العقلاء على أنفسهم نافذ، أما قولك أن لك عشرة فهو ادعاء، وعلى المدعي البينة.

مع طلحة:

كان طلحة يحرض على قتل عثمان، وبعد أن تحقق ما أراد خرج مع مروان بن الحكم مطالباً بدمه ليكيد للإمام، ويستر جريمته.. فاغتاله مروان، وهما يقاتلان علياً جنباً إلى جنب، لأنه أعرف الناس بمقاصده وماضيه مع عثمان، وقال الإمام يرد على طلحة:

«والله ما استعجل متجرداً للطلب بدم عثمان إلا خوفاً من أن يطالب بدمه لأنه مظنته، ولم يكن في القوم أحرص عليه منه ـ أي أحرص على سفك دم عثمان ـ فأراد أن يغالط بما أجلب فيه، ليلبس الأمر، ويقع الشك، ووالله ما صنع في أمر عثمان واحدة من ثلاث، لئن كان ابن عفان ظالماً ـ كما كان يزعم ـ لقد كان ينبغي له أن يؤازر قاتليه، أو ينابذ ناصريه. ولئن كان مظلوماً لقد

كان ينبغي له أن يكون مع المنهنهين عنه، والمعذورين فيه، ولئن كان في شك من الخصلتين لقد كان ينبغي له أن يعتزله، ويركد جانباً، ويدع الناس معه، فما فعل واحدة من الثلاث، وجاء بأمر لا يعرف بابه، ولم تسلم معاذيره».

فطلحة لا يخلو من هذه الحالات الثلاث، إما أن يكون معتقداً بأن عثمان ظالم، وإما مظلوم، وأما لا يعتقد هذا ولا ذاك، ولا يعرف من أمره كثيراً ولا قليلاً.. وعلى الأول ينبغي لطلحة أن يعلن العداء لعثمان، ولا يدس عليه الدسائس في الخفاء، وعلى الثاني ينبغي له أن يدافع عنه، وعلى الثالث ينبغي أن يقف محايداً لا معه ولا عليه، وطلحة لم يفعل واحدة من هذه الثلاث..

وليس هذا القول من الإمام مجرد نقاش وجدل يهدف إلى إلزام طلحة وإفحامه، وإنما هو حقيقة واقعية، تماماً كقولك إما أن يكون هذا الإنسان بالذات عاقلاً الآن، وأما أن لا يكون عاقلاً، الآن ولا ثالث لهذين الفرضين.

مع معاوية:

اتهم معاوية الإمام بدم عثمان، فأجابه: لقد بذلت نصرتي لعثمان فرفضها، وطلبها منك فخذلته، وخليت بينه وبين الموت فمن هو المعتدي أنا أو أنت؟.. قال:

«فأينا كان أعدى له، وأهدى إلى مقالته؟.. أمن بذل له

نصرته، فاستقعده، واستكفه ـ أي قال له: اقعد وكف ـ أو من استنصره فتراخى عنه؟..».

وقال معاوية للإمام فيما قال: إن الخلافة صرفت إلى غيرك من المهاجرين، فأجابه الإمام:

«لما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله، فلجوا عليهم ـ أي انتصروا ـ فإن يكن الفلج به فالحق لنا دونكم، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم».

يشير الإمام إلى حجة الأنصار حين طلبوا الخلافة، وقالوا: نحن آوينا النبي وناصرناه. وإلى رد المهاجرين عليهم، وقولهم: نحن قومه وأقرباؤه.. وتتلخص حجة الإمام على المهاجرين ومن ناصرهم بكلمة واحدة، وهي أنه أقرب الناس إلى النبي، إن تكن الخلافة بالقرابة، وإلا فالمهاجرون والأنصار وجميع المسلمين سواء.

وما زالت هذه الحجة حية، حتى اليوم يحتج بها الشيعة في كل مناسبة، ولا أعرف حقيقة تصدم المعاندين أكثر من هذه الحقيقة، حيث لا يستطيعون لها رداً ولا جواباً.

مع الخوارج:

ظهر الخوارج في جيش الإمام حين التجأ معاوية إلى التحكيم بعد أن هم بالفرار، فرفضه الإمام، ولكن الخوارج حملوه عليه مضطراً لا مختاراً، ثم اعتبروا التحكيم جريمة كبرى، وخرجوا على

الإمام من أجله، وهم السبب، وقطعوا الطريق، وأخافوا الناس، وقتلوا عبد الله بن خباب والمصحف في عنقه، فقال الإمام محتجاً عليهم:

«فإن أبيتم إلا أن تزعموا أني أخطأت وضللت، فلم تضللون عامة أمة محمدﷺ بضلالي، وتأخذونهم بخطأي، وتكفرونهم بذنوبي... سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب؟..».

وكان شعار الخوارج: «لا حكم إلا لله»، فقال الإمام:

«كلمة حق يراد بها باطل. نعم لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله.. وإنه لا بد للناس من أمير بر، أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع الكافر، ويبلغ الله فيه الأجل».

أما أن «لا حكم إلا لله» كلمة حق فلأن أحكام الله سبحانه لا تفوض لأحد من خلقه، بخاصة إذا كان مثل أبي موسى الأشعري وابن العاص. فإن تشريع الأحكام لله وحده، وأما أن الخوارج قد أرادوا بها باطلاً فلأنهم يهدفون من ورائها إلى نفي الإمرة كلية التي يلزمها نفي ولاية الإمام وإمرته، مع أن أمور الناس لا تستقيم بحال دون أمير عادل أو فاجر، إذ لا بد للناس من رادع يردعهم عن الاعتداء والإجرام، والرادع واحد من أربعة، العقل والدين والعجز والسلطان، وقد رأينا أكثر الناس لا يتعظون بعقل ولا دين، فوجود السلطان الرادع ضروري إذن،

حتى ولو كان جائراً، ومن هنا قيل:

إن الذين يرتدعون بالسلطان أكثر من الذين يرتدعون بالقرآن، وإن ما يلتئم بالسنان لا يلتئم بالبرهان.

إن هذه الأمثلة، وما إليها تعطينا الدليل على مدى اعتماد الإمام على منطق العقل في مناقشاته، وسائر أدلته وأقواله، كما تدلنا على أن عقل الإمام لا ينفصل عن الواقع، وليس كغيره من العقول النظرية التي تخطئ وتصيب.

التأويل

العقل والوحي:

اتفق المسلمون بكلمة واحدة على أن أدلة الشرع والطرق إلى معرفة أحكامه تنحصر في الكتاب والسنة والإجماع والعقل. وأيضاً اتفق الكل أو الجل على أن ما من شيء في الكتاب والسنة يتنافى مع قضية من قضايا العقل، لأن الجميل أسباب وطرق لمعرفة شيء واحد، هو حكم الله سبحانه، ومن هنا قال المحققون إن الشرع عقل من الخارج، والعقل شرع من الداخل، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم: ٣٠] حيث سمى العقل ديناً، وفي آية أخرى ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي نور العقل ونور الشرع، وهما من نور الله، ويهدي الله لنوره من يشاء.

هذا، إلى أننا بالعقل نثبت صدق الوحي، فلو جاء العقل على خلافه لكان الدين أسطورة من أساطير الأولين، ويكفي دليلاً على عدم مناهضة العقل للشرع أن العقل هو المصدر الأول

للتكليف، فإذا فقد ارتفع التكليف رأساً بشهادة الرسول الأعظم حيث قال: «رفع القلم عن الصبي، حتى يكبر، وعن المجنون، حتى يفيق، وعن النائم، حتى يستيقظ» واشتهر على كل لسان: «إذا أخذ ما وهب سقط ما وجب».

ظاهر الوحي:

جاء في القرآن آيات تتنافى بظاهرها مع العقل مباشرة، أو بالوساطة فمن النوع الأول قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾. وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾.. وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، وما إلى ذلك مما ظاهره التجسيم الذي نفاه العقل.

ومن النوع الثاني، وهو ما يتنافى مع العقل بالوساطة قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣] فإن كل آية من الآيتين بمفردها لا تناقض العقل في شيء، ولكن إذا عطفنا إحداهما على الأخرى حصل التناقض، لأن هذه تثبت السؤال والحساب، وتلك تنفيه.. والتناقض باطل بحكم العقل.. فماذا نصنع؟ هل نبقي اللفظ على ظاهره، ونلصق بالإسلام المعنى المفهوم منه، حتى ولو ناقض العقل، ونقول: إن لله يداً ووجهاً وعرشاً، وإن الإنسان غداً مسؤول وغير مسؤول في آن واحد، أو نصرف اللفظ عن معناه إلى معنى آخر، ونخرجه من دلالته الحقيقية التي رفضها العقل إلى دلالته المجازية التي يقرها ولا يأباها، من غير مخالفة للسان العرب ـ وهذا هو معنى التأويل ـ أو نسكت عن التأويل، ونقول: الله أعلم؟

الأقوال:

قال قوم، ومنهم الحنابلة ببقاء الظاهر على دلالته الحرفية، وإن خالف العقل والبديهة، وغالى البعض، حيث قال: إن الله جسم ذو أعضاء، وإن أعضاءه بكاملها تفنى وتهلك إلا وجهه أخذاً بظهر قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[(١)].

وذهب الشيعة الإمامية والمعتزلة والأشاعرة إلى وجوب التأويل بما يتفق مع العقل، وإن سلك كل في فهم الآيات وتأويلها طريقاً يتفق مع مذهبه، ولا يختلف عن طريق الآخر.

الفلاسفة:

وتكلم الفلاسفة المسلمون عن التأويل، واعتبروه من جملة البحوث الفلسفية الهامة، لأنه من شؤون الوحي الذي هو أحد طرق المعرفة من جهة، وليقبل الناس فلسفتهم، ويقابلوها بالتسامح من جهة أخرى، وبتعبير ثان أن هؤلاء الفلاسفة يؤمنون بقدم العالم، ونفي الجسمية ولوازمها عن الله سبحانه، وبأنه يعلم الكليات دون الجزئيات، وأن الإنسان يحشر غداً بالروح دون الجسم، وفي الوقت نفسه يؤمنون بنظرية الوحي والنبوة.. وقد

(١) وما أشبه هذا القول بما ذهب إليه جماعة من علماء اللاهوت المسيحي، حيث فصلوا بين ما يثبته العقل، وما يقول الوحي، وجزموا بأنه من الممكن للإنسان أن يؤمن بأمور يثبت العقل عكسها.. أما توما الاكويني اللاهوتي الكبير فقال: يجب أن يتفق العقل والوحي، ولا يجوز بحال أن يعلم الوحي ما يأباه العقل، ما دام كل منهما سبيلاً إلى الحقيقة.

رأوا أن كثيراً من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية تدل بظاهرها على حدوث العالم، ونسبة الجسمية إلى الله والجزئيات إلى علمه، كما تدل على حشر الأجسام، لذا اهتموا كل الاهتمام في أن يوفقوا بين العقل، ويثبتوا للناس أن الوحي لا يعارض الفلسفة، بل هما اخوان متآلفان، ولازمان لا يفترقان.. لقد اهتم الفلاسفة بالتأويل أي اهتمام، حتى قال بعض المستشرقين: ليس للمسلمين من فلسفة تذكر إلا هذا التأويل والتوفيق.

السابق إلى التأويل:

والسابق الأول إلى هذا التأويل، وتحكيم العقل في الدفاع عن مبادئ الإسلام والتوفيق بين العقل وظاهر الوحي، هو الإمام علي بن أبي طالب، وتلميذه عبد الله بن عباس، وأولاد الإمام وأحفاده من بعده، وإذا كان للمعتزلة نصيب من ذلك فقد أخذوه عن رئيسهم واصل بن عطاء، وأخذه واصل من أستاذه أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، فقول القائل إن المعتزلة سبقوا الجميع إلى تأويل النصوص الشرعية تبعاً لما يقتضيه منطق العقل لا يرتكز على أساس من التحقيق والبحث المجرد.

ولدينا من تراث الإمام في هذا الباب ما لو جمع لجاء في كتاب مستقل، ونقدم في هذه الصفحات أمثلة من أقواله تعطينا الدليل القاطع على أن الإمام كان القدوة والمثل الأعلى للمعتزلة وغيرهم في تقديس العقل، ومنحه الحرية التامة في أن يقبل من ظاهر الوحي ما يبدو له ممكناً ويرفض ما يبدو له مستحيلاً.

أهل التأويل:

لقد أول المعتزلة وغيرهم بعض النصوص الشرعية، وحاولوا التوفيق بينها وبين العقل، ولكنهم اعتمدوا على الاعتبار والاستحسان، وأجروا النصوص على عقولهم، ومذاهبهم التي ورثوها عن الآباء، أو تلقوها من الأساتذة، بخاصة المتصوفة الذين لا يملكون سوى ألفاظ جوفاء. يطلقونها على أشياء لا عين لها ولا أثر.. وبديهة أن دين الله لا يصاب بالعقول، وأن مراده عز وجل لا يكتشف بالاعتبار والاستحسان، وإنما يعرف من ظاهر كلامه فإذا تيقنا أن الظاهر غير مراد وجب التوقف والإحجام عن إبداء الرأي إلا مع الدليل القاطع على مراده، لأن السكوت على الجهل بخاصة في الأمور الدينية أولى من الافتراء على الله سبحانه.

لذا قال أبو بكر حين سئل عن بعض الآيات: «أي سماء تظلني. وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟» وجاء في الحديث الشريف: «من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ». ولا يوجد هذا الدليل القاطع إلا عند من أحاط علماً بالدين وحقائقه، والعقل ودقائقه، كالإمام علي بن أبي طالب الذي قال:

«سلوني قبل أن تفقدوني.. سلوني عن كتاب الله فوالله ما نزلت آية من كتاب الله عز وجل في ليل أو نهار، ولا مسير أو مقام إلا وقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وعلمني تأويلها، فقال له

قائل: «فما كان ينزل عليه، وأنت غائب؟» قال الإمام: «كان يحفظ علي ما كان ينزل عليه من القرآن، وأنا غائب عنه، حتى أقدم عليه، فيقرأنيه، ويقول لي: يا علي انزل الله عليّ بعدك كذا وكذا، وتأويله كذا وكذا، فيعلمني تأويله وتنزيله.. فوالذي برأ النسمة لو سألتموني عن أية آية.. ناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها لأخبرتكم».

إذن، فلا بدع أن يقول الإمام: «ذاك القرآن الصامت، وأنا القرآن الناطق» وأن نقول نحن: إن تأويل الإمام هو تأويل النبي الذي نزل القرآن على قلبه، وان عقله عين الواقع، واليقين القاطع.

وبالتالي، فإن التأويل يتصل اتصالاً وثيقاً بالعقيدة التي سببها مدار الكفر والإيمان، ومن ثم فلا يؤذن به إلا الذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب، وإلا لذوي البصائر والألباب العارفين بالله ودينه وكتابه الذي فيه تبيان كل شيء، وعلى هؤلاء العارفين أن يتمسكوا بظاهر الشرع المقدس، ولا يخرجوا عنه لقول فيلسوف، ولا لقول الفلاسفة مجتمعين إلا بعد القطع بالصحة، فإنهم أجمعوا على صحة كثير من النظريات، ثم أثبت الزمن خطأهم، وبعدهم عن الواقع، منها تأويلهم لبعض آيات القرآن الذي لا يعلم تأويله إلا الراسخون.

قال الإمام: إن في الكتاب تبيان كل شيء، وهو يصدق بعضه بعضاً، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، وإن

ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تتكشف الظلمات إلا به.. وقال: «إن في القرآن ما لا يعرفه إلا الله وأمناؤه والراسخون في العلم».

الأمثلة:

جاء في كتاب «الاحتجاج» للطبرسي حديث طويل أوّل فيه الإمام عدداً من الآيات المتشابهة. نذكر طرفاً منها، مع شيء من التصرف في الألفاظ، لغاية التوضيح، مع المحافظة التامة على المعنى. أما سبب الحديث فإن رجلاً قال للإمام: لولا ما في قرآنكم من اختلاف وتناقض لدخلت في دينكم. فقال له الإمام: وأين هذا الاختلاف؟ فسرد العديد من آيات الذكر الحكيم تدل بظاهرها على دعواه.. وبعد أن بين له الإمام أوجه التأويل الصحيح اقتنع، وقال: شكراً لله يا أمير المؤمنين لإستنقاذي من عماية الجهل والشرك.

جاء ربك:

قال الرجل: ورد في القرآن ما يثبت لله المجيء والإتيان، مع العلم بأن ذلك لا يجوز عندكم من ذلك. ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾.. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾.

قال الإمام: إن إتيان الله ومجيئه ليس كمجيئنا نحن، ولا ذهابنا إليه كذهاب بعضنا إلى بعض، ولا قتاله لنا كقتالنا نحن،

ولا رميه كرمينا، والآيات التي دلت بظواهرها على هذه الصفات تجري على التأويل، فقوله وجاء ربك معناه جاء أمر ربك، وقوله حكاية عن إبراهيم اني ذاهب إلى ربي معناه إني مخلص له في أقوالي، ومعنى قاتلهم الله أنى يؤفكون لعنهم الله، ومعنى ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى إن الله شاء ذلك وأراده.

قال الرجل: وماذا أراد بقوله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾؟.. قال الإمام: إن الاستواء على العرش معناه علو أمره وكلمته، وتدبير الخلق بحكمته.

وما كان ربك نسياً:

قال الرجل: جاء في القرآن: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ وجاء أيضاً: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ فنفى الله النسيان عن نفسه في الآية الأولى، وأثبته لنفسه في الثانية، وهو تناقض ظاهر.

قال الإمام: إن العصاة نسوا الله في دار الدنيا، ولم يعملوا فيها بطاعته، فأهملهم يوم القيامة، ولم يجعل لهم نصيباً من ثوابه، فكانوا منسيين من الخير، وهذا أشبه بقول من قال: نسينا فلان أي لا يذكرنا بما نحب، وعليه يكون المراد بالآية الأولى أن الله حفيظ عليم، وبالثانية أنه لا يثيب العاصين.

رؤية الله:

قال الرجل: أثبت القرآن جواز رؤية الله وإمكانها بقوله:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وآية أخرى نفى إمكان الرؤية بتاتاً، حيث قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وهذا هو التهافت بعينه.

قال الإمام: إن المراد برؤية الله أن المؤمنين يرون ثوابه ورحمته حين يدخلون الجنة، لا انهم يرون الله بالذات تعالى الله علواً كبيراً.

تخاصم أهل النار:

قال الرجل: يقول القرآن في بعض آياته: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي المشركون. وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾[1] ثم جاء في آية أخرى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فهذه تنفي الكلام عن المشركين، وتلك تثبته.

قال الإمام: إن ليوم القيامة مواقف شتى يؤذن في بعضها للمجرمين بالكلام، فيتكلمون ويتخاصمون، وفي بعضها يختم على أفواههم، ويعطى الكلام لايديهم وأرجلهم، تماماً كما يقف الخصم أمام الحاكم، يستمع له حيناً، ثم يأمره بالسكوت، ويستمع للشهود دونه.

ثم قال الإمام للرجال: واعلم أنك قد تركت من السؤال

---

(١) وقد رأينا الأشرار في حياتنا هذه يتخاصمون ويتراشقون بالتهم فيما بينهم، وكل واحد يقول في صاحبه حقاً وصدقاً.

أكثر مما يجب عليك أن تسأل عنه، وإني قد اقتصرت على اليسير من التفسير، لعدم حملة العلم، وقلة الراغبين في التماسه.

وبعد، فإن الإمام يعتمد على العقل في تفسير بعض الآيات وعلى العرف في البعض الآخر، ذلك أنه يأخذ بظاهر الدلالة الحرفية تماماً كما يفصحها الناس إذا لم يصطدم هذا الظاهر مع العقل ويلجأ إلى التأويل بما يتفق مع العقل إذا حصل التصادم، لأن كلاً من العقل والشرع حق، والحق لا يضاد الحق، بل يوافقه، ويشهد له، وعلى هذا يكون التأويل إما محرماً على العلماء وغيرهما، كما الصورة الأولى، وإما واجباً على أن يتولاه أهل العلم والمعرفة فقط، كما في الصورة الثانية.

في الأخـــلاق

الأخـــلاق

علم الأخلاق:

علم الأخلاق فرع من فروع الفلسفة، وشعبة من شعبها، وهو يبحث في السلوك الإنساني، والقياس الذي تقاس به الأعمال الخيرية والشرية، ليفعل الإنسان ما ينبغي فعله، ويترك ما ينبغي تركه.

والقضايا الأخلاقية عملية بكاملها، لأنها دراسة أعمال وأفعال، من حيث حسنها وقبحها، لا دراسة آراء ومعتقدات، من حيث صوابها وخطئها، وبكلمة أن علم الأخلاق يحل مشاكل عملية، لا مشاكل فكرية[1].

تمهيد:

وقبل أن نذكر قياس الأعمال الخيرية نمهد بما يلي:

---

(١) أي ليست الغاية من علم الأخلاق معرفة الحقائق وكفى، بل معرفتها من أجل العمل.

لقد أنكرت فئة من القدامى والمحدثين وجود القيم الأخلاقية، وقالت: إن أعمال الناس، من حيث هي لا توصف بخير أو شر، ولا بحق أو باطل، ولا بحسن أو قبح، لأنه لا شيء من هذه الألفاظ يدل على معنى موجود في نفس الشيء الذي وصف بالخير أو بالشر، فإذا قلت: هذا الفعل خير، فإن كلمة خير لا تدل على معنى تدركه الحواس في هذا الفعل، وإنما تدل على شيء آخر.. ثم اختلف هؤلاء في هذا المعنى الآخر الذي تدل عليه ألفاظ القيم، فمنهم من قال: إنه مجرد شعور الإنسان نحو الشيء، فإذا قال القائل: هذا خير فإنه، والحال هذه، يخلع من عنده صفة الخير على الفعل الذي يلائمه، ويحقق ميوله دون أن يكون بإزاء هذا الوصف شيء في الخارج، أي أن قوله هذا وصف لشعوره بالذات لا وصف للفعل الخارجي.

ومنهم من قال: إن ألفاظ القيم تدل على عقيدة دينية، وهي الإيمان بأن الخير ما أراده الله وأمر به، وإن الشر ما كرهه ونهى عنه، دون أن تقوم في طبائع الأفعال صفة تستدعي الأمر أو النهي، وقد ذهب الأشاعرة إلى هذا، وقالوا: إن الفعل في نفسه، وبصرف النظر عن الشرع لا يقتضي حسناً، ولا قبحاً، وإنما الحسن ما أمر به الشرع، والقبيح ما نهى عنه.. ولو أمر بما نهى لصار حسناً بعد أن كان قبيحاً، أو نهى عما أمر لصار قبيحاً بعد أن كان حسناً.

ومنهم من قال: إن ألفاظ القيم اخترعها أصحاب المآرب،

ليتخذوا منها أداة لتحقيق مآربهم ومصالحهم، فالزهد وضبط النفس والورع والترفع عن الشهوات، ألفاظ صاغ منها السادة المسيطرون قيوداً للمستضعفين، ليحولوا بينهم وبين ما لهم من حق.. خاف أولئك من هؤلاء أن يثأروا لكرامتهم، ويتحرروا من السيطرة والاستعباد، فوضعوا هذه المصطلحات، ليبقى المغلوبون على أمرهم أداة طيعة في يد الغالبين.. وكذلك اخترع الضعفاء ألفاظ الحرية والعدالة والمساواة، ليحدوا من سلطان الأقوياء، ولا يستأثروا عليهم بشيء.

وأقوى دليل استدل به هؤلاء قولهم: إن الظواهر الخلقية تختلف باختلاف الأمم، بل تختلف في الأمة الواحدة باختلاف العصور، فما يكون خيراً في مجتمع ما قد يكون شراً في مجتمع آخر، وما تعده أمة فضيلة قد تعده غيرها رذيلة، وما هذا الاختلاف إلا نتيجة حتمية لنفي القيم الأخلاقية، وعدم وجودها في الخارج.

ونحن نوجه إلى هؤلاء هذه الأسئلة: إذا قال لكم قائل: لا تحكموا على شيء إلا بعد أن تقدموا الأدلة الكافية الوافية على صحة الحكم، فهل قوله هذا خير أو شر؟ وهل الحسد والغرور والكبرياء من نوع الفضيلة أو الرذيلة؟ وهل من الخير أن يكون القوي في عون الضعيف، أو أن يستغل القوي الضعيف لصالحه؟

أما اختلاف الظواهر الأخلاقية لدى الأمم فإن دل على شيء فإنما يدل على أن منطق الجموع لا يصلح قياساً للخير

والشر، أما نفيهما من الأساس فلا. ويكفي للرد على هذا المذهب أن يكون الطيب والخبيث والمجرم والبريء لديه سواء.

وإذا كانت ألفاظ القيم فارغة لا معنى لها كما زعموا، فإن قولهم هذا فارغ لا معنى له.. وقديماً قيل: «من نفى الفلسفة فقد تفلسف.. ومن امتنع عن الاختيار فقد اختار».

وقال الذين وقفوا بالمعرفة عند الاختبار والتجربة، ولم يتجاوزوا بها إلى ما وراء العين والأذن واليد، قالوا: إن الخير كل الخير في العلم والآلة التي أنتجت للإنسان ما يأكل، ويلبس، ويسكن، ويركب، وارتفعت بالحضارة المادية إلى عليين، ثم ربطوا بين تقدم الآلة، والسلوك الرفيع المهذب، وقالوا: كلما كان الإنسان أكثر اختراعاً لها كان على مستوى أعلى من الأخلاق، فالتقدمية والقيم الأخلاقية تكمن جميعها في التقدم الصناعي.

الجواب:

أولاً ـ إن الغرب أبو الصناعات والاختراعات، ومع ذلك هو معدن الجرائم والمفاسد.

ثانياً ـ لا نعرف شيئاً ضخَّم عملية الحرب، كما ضخمتها الصناعة وتقدمها، فهما وحدهما التي قسما العالم إلى كتلتين تتسابقان في ميدان التسلح الذري وغير الذري، حتى وجهتا الإنتاج والمجهود البشري إلى النار والحديد، وتركتا مئات

الملايين يموتون جوعاً.

ثالثاً - إن وفرة الإنتاج الصناعي أدت بالعالم الرأسمالي إلى أن يتَّخذ الحرب والاستعمار واحتكار الأسواق وسيلة لتصرفه واستهلاكه.

أن تقدم الصناعة لا يجدي نفعاً ما لم يكن الإنسان تقدمياً في إنسانيته، طيباً في نيَّاته ومقاصده، خيِّراً في صفاته وغرائزه.. إن رسالة العلم إنسانية ما في ذلك ريب، لكن من المحال أن يؤديها كاملة إلا إذا كانت في أيدي الأخيار الطيبين.

عند الإمام:

ويرى الإمام أن القيم الأخلاقية صفات عينية قائمة في نفس الأفعال وطبائعها، ولا دخل في وجودها واصل تقررها لأوامر الدين ونواهيه، ولا لتشريعات الدولة وقوانينها، ولا لرغبات الناس وميولهم، وعاداتهم وتقاليدهم. فالعمل الذي يحقق النفع الشامل والصالح العام يوصف حقيقة بالحسن والخير بغض النظر عن إرادة الخالق أو المخلوق، وكذلك يوصف بالشر كل فعل يعطل المصلحة العامة، أو يلحق ضرراً بالجماعة، أو الفرد، وبكلمة أن الخير هو فعل الخير، والشر هو فعل الشر بالذات، ولا تأثير للقوانين أو التشريعات، ولا للدوافع والغايات، وعلى هذا الرأي سقراط وأفلاطون وأرسطو وديكارت، وغيرهم من فلاسفة الغرب.

أجل، أن الإمام يرى أن من يفعل الخير لا لوجه الخير، بل لمآرب أخرى لا يعد من الطيبين الأخيار الذين يستحقون الأجر والثواب، وتكلمنا عن ذلك مطولاً في كتاب «الآخرة والعقل».

من أقوال الإمام:

وبعد أن أشرنا إلى رأي الإمام في الأخلاق، وان قيمة كل فعل تكمن في باطنه نذكر طرفاً من أقواله العدالة على هذه الحقيقة:

قال من وصيلة له لولده الحسن: «إن الله لم يأمرك إلا بحسن، ولم ينهك إلا عن قبيح».

ومعنى هذا أن حسن الفعل سابق على أمر الله، وقبحه متقدم على نهيه تقدم الموضوع على حكمه، وعليه يصح القول: إن الله أمر بهذا لأنه حسن، ونهى عن ذاك لأنه قبيح، ولا يصح القول أن هذا حسن، لأن الله أمر به، وذاك قبيح، لأن الله نهى عنه كما زعم الأشاعرة.

وقال: «لو لم يتوعد الله على المعصية لكان يجب أن لا يعصى شكراً لنعمه» أي أن قبح المعصية قائم فيها، وهذا القبح يستدعي تركها. ولو لم ينه الله عنها، ويتوعد على تركها.

وقال: «الإيمان أن تؤثر الصدق، حيث يضرك على الكذب، حيث ينفعك» وهذا رد صريح على من قال: إن قوام

الأخلاق بتحقق الميول والرغبات، لا في نفس الأفعال والأعمال، وإنه إن يكن هناك ما يسمى خيراً أو شراً فإن اللذة والمنفعة هي الخير الأسمى، وإن الألم والضرر هو الشر الأقصى.

وسئل الإمام عن الفرقة والجماعة، فقال: إن الفرقة أهل الباطل، وإن كثروا، والجماعة أهل الحق، وإن قلوا. وقال: يعرف الرجال بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال.

نفى الإمام التلازم بين الحق والأكثرية، وبين الباطل والأقلية، ويرى أن هؤلاء قد يكونون محقين، وأولئك قد يكونون مبطلين، ذلك أن للحق واقعاً مستقلاً في ذاته يصيبه من أصاب، ويخطئه من أخطأ، ولو كانت الأكثرية دائماً على صواب، والأقلية دائماً على خطأ لم يبق للإصلاح والمصلحين أي مجال للعمل، ولا كان للأنبياء عين ولا أثر، ولوجب إبقاء ما كان على ما كان، ولم يجز لأحد أن ينتقد عادة من عادات قومه، وتقليداً من تقليدهم ومعلوم أن أكثر الناس تسيرهم العواطف والأهواء، وصدق الله العظيم، حيث يقول: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

سؤال:

ورب قائل: إن الأشياء على نوعين: نوع له وجود مقرر في الخارج، بغض النظر عن آراء الناس ومشاعرهم، كوجود الجبال

والأنهار، وما إليها من الكائنات الطبيعية التي لا دخل للإنسان فيها ولا أثر له في وجودها، وان كل ما يستطيعه بالقياس إليها هو أن يصفها، ويعبر عنها، فإن جاءت أقواله مطابقة للواقع كانت صدقاً وصواباً، وإلا فهي كذب وخطأ.

ونوع آخر لا وجود له في الخارج، ولا في ذاته، وإنما وجوده يرتبط باعتبار المعتبر، وفرض الفارض، كوصف إعطاء الفقير درهماً بالإحسان، فإن هذا الوصف مجرد شعور ذاتي نحو الفقير، ولا وجود له إلا في نفس الواصف.

ومن الجائز أن يكون مراد الإمام بقوله أهل الحق هم الذين يصفون الواقع الطبيعي بصفاته الحقيقية دون أن يضيفوا عليها شيئاً، أو ينقصوا منها شيئاً، وأهل الباطل هم الذين يصفون الواقع الطبيعي بغير ما هو عليه، وما يقال في كلمات الإمام يقال أيضاً في الآيات القرآنية.

الجواب:

إن الإمام أراد بالحق والباطل فعل الإنسان الذي يوصف حقيقة بهذا الوصف، لا نفس الكائنات الطبيعية، والدليل على ذلك قوله لأبي ذر حين نفاه عثمان: «لا يؤنسنك إلا الحق، ولا يوحشنك إلا الباطل». حيث وصف ثورة أبي ذر على كنز الأموال والاستئثار بها بالحق. ووصف تنكيل عثمان بأبي ذر وتشريده بالباطل.

ومن أقواله: «لا تزيدني كثرة الناس حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة، ولو أسلمني الناس جميعاً لم أكن متضرعاً». وليس من شك أن الحق لو كان مرتبطاً بشعور الناس لاعتز الإمام بتجمعهم حوله، واستوحش من تفرقهم عنه. هذا، إلى ما ذكره الإمام من حق الوالد على الولد، والراعي على الرعية، والجار على جاره، والقريب على قريبه، وإلى قوله مشيراً إلى حذائه البالية: «والله لهي أحب إليّ من أمرتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً» ولو لم يكن للمثل الإنسانية وجود مقرر في نفس الأمر والواقع لم يكن لهذه الأقوال وجه ولا معنى.

وبالتالي، فإن الإمام لا يعتمد لآرائه وأفعاله على التقاليد والعادات، وآراء الجماعات، مع العلم بأنه كان يحترم شعور الناس، وتقاليدهم إذا لم تتناف مع الحق في شيء، قال:

«لا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة، وصلحت بها الرعية».

وقال: «خالطوا الناس مخالطة إن متم معها بكوا عليكم، وإن غبتم حنوا إليكم».

وقال: «مقاربة الناس في أخلاقهم أمن من غوائلهم» وإذا عطفنا قوله هذا على قوله السابق وجب أن تكون المقاربة غير مناهضة للحق.

وليس معنى ثبوت كل من الخير والشر في ذاته أن الناس لا

تتركهما، ولا ترغب في فعل الخير، وترك الشر إطلاقاً، بل معناه أن وجودهما في الواقع لا يتوقف على رغبات الناس وميولهم، مع العلم بأن الكثير من هذه الرغبات تتفق تماماً مع الخير، فقد رأيناهم يمدحون الصدق والأمانة والمسالمة والإخلاص والحرية والمساواة والتضحية والإيثار، ويذمون الكذب والخيانة والرياء والحرب والاستبداد، والاستئثار، ويكرمون الأبطال الخيرين، ويقيمون لهم التماثيل، وحفلات التكريم، وقديماً قال الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

ومع هذا، فإن من الناس من يسلك أساليب ملتوية، فينفر من الخير، ولا يميل إليه، ويهوى الشر، ويرغب فيه، كما أن منهم من يعمل بقصد الخير، فيأتي عمله شراً وضراً، أو يعمل بقصد الشر، فيأتي عمله خيراً ونفعاً.. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن منطق الناس ورغباتهم لا تصلح بحال أن تكون على قياساً نقيس به السلوك، وقاعدة لأعمال الخير.

القياس:

كان الإنسان الأول ـ حيث يعيش منفرداً بذاته في الغابات الكثيفة والكهوف العارية ـ كان هذا الإنسان يعبر عن مشاعره ومقاصده بالإشارة والصراخ والصفير، وما إلى ذاك، تماماً كما تفعل الطيور والحيوانات، وبعد أن عرف الحياة الاجتماعية احتاج إلى اللغة، ثم إلى قواعد عامة ترتكز عليها.

وما يصدق على اللغة يصدق بعينه على السلوك، فلقد كان كل فرد من أفراد الإنسان المتوحش يعيش، وكأنه أمة برأسها بعيداً عن روح التأثر بالجماعة، مستغنياً عن المقاييس والمبادئ، إذ لا جماعات، ولا علاقات إنسانية، ولا شيء سوى الفرد والطبيعة، ولما جاء دور الحياة الاجتماعية اضطر أن يسلك سلوكاً خاصاً يحفظ به كيان هذه الحياة جيلاً بعد جيل.. وجاء الدين والفلسفة بقواعد ومقاييس لتنظيم هذه الحياة. ويعبر عن هذه القواعد بالمقاييس الأخلاقية، وهي - كما ترى - منبثقة من الحياة نفسها.

وضابطها أن كل ما يعود على الإنسان بالنفع والصلاح فهو خير. وما يعود عليه بالضرر والفساد فهو شر، سواء اكتشفنا ذلك عن طريق العقل، والتجربة، أو العرف، أو الوحي.

وليس من الضرورة لأن يكون العمل خيراً - في نظر الإمام - أن تترتب عليه فائدة عامة فحسب، بل قد تكون عامة، وقد تكون خاصة، على شريطة أن لا تأتي على حساب الغير، والإضرار به، قال: لا خير في الدنيا إلا لرجلين: رجل أذنب ذنوباً فهو يتداركها بالتوبة، ورجل يسارع في الخيرات. وقال أيضاً: أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه.

فالتوبة من الذنوب والمعاصي خير، سواء انتفع بها التائب وحده، أو هو وسواه، وكذلك العمل الذي تكره نفسك عليك، فقد يكون خيراً للجماعة، وقد يكون خيراً لك بالذات.

وقال: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». فكل عمل يحقق لنا الحياة الطيبة في المستقبل كما يحققها في الحاضر، ويحل مشاكلنا الآتية كما يحل مشاكلنا الحاضرة فهو خير، وكل ما يقف عائقاً في طريقها الآن، أو في المستقبل فهو شر. أما قوله: «واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» فقد أراد به الإخلاص لله في العمل، والتجرد عن الأهواء، والبعد عن حب الظهور والرياء.

وبالتالي، فإن أي عمل يترتب عليه نفع عام، أو خاص، لا يضر بالغير فهو خير وفضيلة، وأي عمل يترتب عليه ضرر عام أو خاص فهو شر ورذيلة، اللهم إلا إذا تعارض الصالح الخاص مع الصالح العام، فعندها يكون الخير في التضحية بالأول في سبيل الثاني[1].

---

(١) وللإمام كلمة تدل على أن جميع المصالح العامة تتضمن مصلحة خاصة حتى من يضحي بنفسه من أجل الصالح العام فإن هذه التضحية خير للمضحي في الدرجة الأولى، قال: «ما أحسنت لأحد قط، وما أسأت لأحد قط»، فرفع الناس رؤوسهم تعجباً.. علي لم يسئ بالبديهة، أما أنه لم يحسن، وقد قام الإسلام على سيفه فعجب.. فقرأ قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

من فقه الأخلاق

بعد أن بينا منهج الإمام في الأخلاق، وأنه منهج الإسلام بالذات، نذكر طرفاً من حكمه ومواعظه التي حث فيها على الخير، وزجر فيها عن الشر، محاولين تحليلها وبيان ما فيها من دقائق وأسرار.

النية:

قال: تخليص النية من الفساد أشد على العاملين من طول الجهاد.

وقال: يا كميل ليس الشأن أن تصلي وتصوم وتتصدق، وإنما الشأن أن تكون الصلاة بقلب نقي، وعمل عند الله مرضي.

وقال: إن الله يدخل بصدق النية، والسريرة الصالحة من يشاء من عباده الجنة.

حتى الذين نفوا الحقيقة المطلقة، وقالوا: إن الحقائق بكاملها نسبية، وإنه لا سبيل لمعرفة أي شيء معرفة صحيحة مجردة عن الزمان والمكان وبقية الأشياء التي يتفاعل معها، حتى

هؤلاء استثنوا النية الصالحة والإرادة الخيرة من قاعدتهم هذه، وقالوا: إنها الشيء الوحيد الذي يمكن اعتباره خيراً مطلقاً يتخطى الزمان والمكان والأحوال، وكذلك استثنى النية الصالحة الذين نفوا وجود الخير في ذاته، وقالوا: إنها خير في جميع الحالات.

ولكن هؤلاء يعتبرون الإرادة كل شيء بالقياس إلى الفاعل وإلى الفعل، ويرون أن الفعل في ذاته ليس بشيء يوصف بخير أو شر، وإنما إرادة الخير هي التي تجعل الفعل خيراً، وإرادة الشر تجعله شراً.

أما الإمام فيحصر تأثير الإرادة والنية في الفاعل لا في الفعل، ويرى أن الرجل الصالح من يريد الخير، ولو لم يهتد إليه، والطالح من يريد الشر، ولو أخطأه، دون أن تغير الإرادة والنية شيئاً من طبيعة الفعل[1] وهذا هو مبدأ الإسلام بالذات، حيث اعتبر فاعل الخير لا لوجه الله والخير مرائياً، ونعت الرياء بالشرك الأصغر، والشرك الخفي، وعذر فاعل الشر بدون قصده، ولم يعده مع القاسطين، وجعل النية أساساً للهلاك، أو النجاة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. وقال: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

وجاء في الحديث: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما

---

(١) يستثنى من ذلك العبادات، كالصوم والصلاة، والحج والزكاة، لأن النية فيها ركن كالأفعال تماماً.

نوى.. يحشر الناس غداً على نياتهم.. من خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث. وقال الإمام: كم من صائم ليس له من صيامه إلا السهر والعناء، حبذا نوم الأكياس وإفطارهم، نوم على يقين خير من صلاة على شك.

ومن طريف ما قرأت أن المرائي يحشر غداً على هيئة الحرباء إشعاراً بما كان عليه في هذه الحياة.

ونشير بهذه المناسبة إلى الفرق بين الطيب العاقل، وبين المغفل الأبله.. ورغم أنهما يشتركان في سلامة القلب، أو في عدم نية السوء على الأصح، فإنهما يفترقان في أن لنية العاقل وزناً وتأثيراً في حمده أو ذمه، أما نية المغفل فليست بشيء يحمد أو يذم، لأنه قاصر ناقص في جميع حالاته، حتى حين يفعل الخير.

وبالتالي، فإن الإنسان في نظر الإمام مسؤول عن نيَّاته وبواعثه ومقاصده، وتخليصها من الفساد، تماماً كما هو مسؤول عن أفعاله وأقواله، وأن النية الخالصة لوجه الخير أفضل ألف مرة من فعل الخير للظهور، أو لمآرب أخرى.

ومن هنا ينبغي أن لا ننظر إلى الأفعال، وكفى، إذا أردنا أن نعرف إنساناً على حقيقته.. بل علينا أن نغوص إلى أعماقه، ونبحث عن نواياه ومقاصده، حيث يكمن الخلق والدين..

ومحال أن نعرف أحداً معرفة صحيحة إذا لم نقف أمام ضميره وجهاً لوجه، فإنه وحده الذي يشهد له، أو عليه.

ومن المفيد أن ننقل حواراً للفيلسوف «شافتّسيري» دار بينه وبين سائل افترضه هو فرضاً، قال:

لو وجه إليّ رجل هذا السؤال: لماذا تتجنب القذارة، وأنت بعيد عن الناس؟ لاقتنعت بأن صاحب هذا السؤال رجل قذر بطبيعته. ومع أن من العسير أن أقنعه بضرورة النظافة لذاتها، فإني أقول: اجتنب القذارة عندما لم يرني أحد، لأن لي أنفاً يقوى على شم الروائح.

وإذا عاد إلى لجاجته، وقال: لنفترض أنك تفقد حاسد الشم. أقول له: إني أشعر بالارتياح إذا رأيت نفسي نظيفاً.

وإذا ألح وقال: هب أنك في الظلام لا ترى أحداً، ولا يراك أحد. قلت له: وفي هذه الحال يظل شعوري بالنفور من القذارة قائماً، لأني أنفر بطبيعتي من القذارة، وإلا كانت طبيعتي خسيسة فاسدة.

الأدب:

قال: كفى أدباً لنفسك تجنبك ما تكرهه من غيرك.

وقال لولده الإمام الحسن: يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبب له ما تحبه لنفسك.

وإذا جاء هذا القول في الكتب السماوية، وعلى ألسنة الحكماء والعظماء الذين سبقوه في الزمن فليس من الضروري أن يكون الإمام قد أخذ عنهم، واقتبس منهم.. إن الإمام أدرك هذه الحقيقة بفطرته الصافية، وتأملاته الصائبة كما أدركها الأنبياء والحكماء، وتأثر بها، تماماً كما تأثروا.

ومهما يكن، فإن كل مبدأ أو نظام ينظر إليه اليوم، ويحاكم على أساس علاقة الإنسان بالإنسان، وانه هل يحقق العدالة والحرية والأمن والرفاهية، ويشيع الحب والاخاء بين الناس، أو يقسمهم إلى آكل ومأكول، وسيد ومسود، ويشيع في النفوس الهلع والقلق والخوف، والفساد والأحقاد، فإن أدى المبدأ والنظام إلى هذه المفاسد أو شيء منها فهو شر وظلام، وإن حقق الأماني الإنسانية ورغباتها فهو حق ونور.

والأمنية الأولى لكل فرد أن لا يستأثر ويمتاز عليه أحد في شيء.. فإن شرعت الشرائع، ووضعت القوانين على هذا المبدأ انقاد إليها الإنسان تلقائياً بفطرته، وطبقها بإرادته، وكانت نفسه وحدها القوة التنفيذية لامتثالها وإطاعتها. لذا أمر الإمام كل فرد إذا أراد أن يحقق أمنيته هذه ـ أن يتخذ من نفسه ميزاناً لعلاقته مع غيره، أياً كان هذا الغير، فيحب له من العافية والمعرفة والعيش والمكانة ما يحبه لنفسه، بلا تفاضل ولا محاباة، ولا رجحان لكفة على كفة.. فإذا استأثر، أو أحب أن يستأثر ويمتاز عن غيره في شيء كان وحده المسؤول عما يقع عليه من ظلم وإجحاف،

وصدق عليه قول الإمام «كما تدين تدان، وكما تزرع تحصد»[1].

وليس من شك أن هذا الميزان أعدل الموازين إطلاقاً في هذه الحياة، ولو استعملناه لقضى على الفساد بشتى صوره وأشكاله، ولما وجد على الأرض بائس أو فاسد، ولتحققت الوحدة الإنسانية والدولية التي حلم بها المصلحون منذ القديم، وما زالوا يحلمون بها، حتى اليوم.

وقال قائل: إن الشر مقدر على هذه الحياة، ومفروض عليها فرضاً لا مفر منه.

ونقول في جوابه: أجل، لا بد من عيش البؤس والفساد، والخوف والعذاب، ما دامت القوانين والأنظمة التي تطبق على الناس تتجافى عن هذا الميزان العادل، وتتجاهل المشاركة الوجدانية، والحب الأخوي المنزه عن الأهواء والشهوات.

وبالتالي، فإن الفاضل الكامل في نظر الإمام هو الذي يشعر بأنه لا يمتاز عن غيره في شيء، وأن الذي له تماماً مثل الذي عليه، ويؤمن بأن وجود أي فاصل بينه وبين أخيه الإنسان معناه وجود التعارض والتناقض بينه وبين نفسه، بين كيانه وذاته.. وبهذا الشعور والإيمان تتقارب الناس، وتتلاشى الطبقات وأسباب الحروب والتقهقر.

---

(١) نلتقي نحن والماديين في القول بوجوب حب الإنسان، ونفترق عنهم بأننا نحب الإنسان من أجل الله، وهم يحبونه من أجل الإنسان، لأن إله الإنسان عندهم هو الإنسان، وعلى قولنا يحاسب من يسيء إلى الإنسان أمام قوة قاهرة، وعلى قولهم هو في حل، لا يحاسب غداً، ولا يعاقب.

المؤمن:

تحدث الإمام عن المؤمن وأطال، وعرّفه بتعاريف شتى، وذكر له كثيراً من العلامات والأوصاف.. وفي نهج البلاغة خطبة خاصة في وصف المتقين، وهي التي صعق لها همام، ومات عند سماعها.. ونقل الشيخ هادي كاشف الغطاء في مستدرك نهج البلاغة خطبة تشبهها تماماً ونكتفي هنا بالفقرة التالية:

قال يصف المؤمن: «كل سعي أخلص عنده من سعيه، وكل نفس أصلح عنده من نفسه، عالم بعيبه، لا يثق بغير ربه».

يتهم العالم الحق آراءه ومعارفه، لأنه يعلم علم اليقين أن كل نظرية تقبل الشك والتساؤل وأنها مجرد فكرة عن الواقع تصدق إن جاءت انعكاساً عنه، وإن أخطأته فكاذبة، وكذلك المؤمن يتهم نفسه، ولا يثق بغير خالقه، لأنه يعلم أن نفسه تلبس الحق بالباطل، وتصور له أنه خير الناس وأفضلهم، فيعاملها هو بعكس ما تريد، وينظر إلى غيره نظرة تقدير واحترام، وإلى نفسه نظرة استخفاف وازدراء.

ولست أعرف تحديداً للمؤمن أدق وأعمق، وأقرب إلى العقل والقلب من هذا التحديد، فإنه نظر إلى الأعماق، إلى قلب الحقيقة التي يكون بها المؤمن مؤمناً لا إلى الأقوال والأفعال التي يتقنها ويحسنها المراؤون أكثر من المخلصين.. والنتيجة الحتمية لهذا التحديد أن من يتعاظم، ويرى نفسه شيئاً مذكوراً فهو أبعد الناس عن الدين والإيمان، قال بعض الفلاسفة: «لا أعرف أحداً

عرف نفسه». أجل، إلا المؤمن الذي يتهمها «ولا يثق بغير ربه»، ويعتقد بأن الكمال الحق لله وحده. ومن أقواله ﷺ: «من سرته الحسنة، وساءته السيئة فهو مؤمن».

المنافق:

وكما أطال الإمام في وصف المؤمن فقد أطال أيضاً في وصف المنافق، وكما اقتصرنا هناك على فقرة واحدة، نقتصر هنا على الفقرة التالية:

قال: «المنافق مظهر للإيمان، متصنع للإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج».

كلنا يعلم أن المنافق هو الذي يظهر خلاف ما يبطن، وأنه في الدرك الأسفل من النار، ولكن الكثير منا يجهل أنه «لا يتأثم ولا يتحرج» أي لا يؤمن بقيم ونظام، ولا بدين ووجدان، ولا بسبب معقول لحقيقة من الحقائق.. إن حياة الإنسان هي الطريق إلى معرفة واقعه وحقيقته، فإن التزم الاستقامة والصدق دل التزامه هذا على أنه رجل المبادئ والإخلاص، وإلا فهو فوضوي إباحي لا يؤمن بشريعة ولا منطق إلا بشريعته ومنطقه ويهزأ بينه وبين نفسه ممن يخاف الله، ويعمل بوحي من الضمير والوجدان، ويلتزم مبادئ التقى والشرف والخير، لأن هذه وما إليها أشياء تافهة في مفهومه.. وإن الحق والفضيلة هي الرشوة والطمع والحرص والتنافس والمداهنة، وكل ما يحقق المنافع والرغبات الخاصة.

وإذا كان المنافق لا يثق بشيء، فأولى ثم أولى أن ينبذ، وألا يثق أحد بشيء من أقواله وأفعاله.

التعصب:

ومن قرأ تاريخ الحروب الصليبية، وما فعلته محاكم التفتيش في أوروبا، والتخاصم بين المسلمين والهندوس في الهند على ذبح البقرة، من قرأ ذلك وما إليه علم أن التعصب عامل هام في إثارة الحروب، وإراقة الدماء، وانه وباء قاتل، تعرضت له عقليات مختلفة في شتى المجتمعات، وأيضاً، علم كذب النظرية القائلة: إن كل ما حدث، ويحدث في تاريخ الإنسان يرجع إلى اعتبارات اقتصادية، ودوافع مادية.

ونحن، وإن كنا نؤمن بأن الاعتبارات الاقتصادية قوية جداً، وأن لها تأثيرها البالغ في سير الحياة، إلا أننا نؤمن أيضاً بأنها ليست السبب الوحيد، والباعث الأول لما كان ويكون.. ومحال أن يتجاهل أهل العقول التعصب كحافز على الأعمال الشريرة، وكعامل ينطوي على كراهية المتعصب وحقده على من لا يشاطره التعصب لعرق أو لون أو شخص قديم أو حديث.. وكم من بليد يملك المال والجاه يحقد على فقير مغمور، ويضمر له العداء لا لشيء إلا حسداً على ذكائه ومواهبه.. وما أكثر تنافس النساء على أشياء تافهة، لا تمت إلى الاقتصاد بسبب.

ومهما يكن، فإن المنصفين من رجال التشريع في هذا

العصر يضعون القوانين على أساس التساهل والتسامح حيال الآراء والمعتقدات أياً كانت، ولا يجيزون الحساب والعقاب إلا على أساس الأعمال الإجرامية.

وما عرف التاريخ أحداً أرحم وأكثر تسامحاً وتساهلاً مع خصومه السياسيين، وغير السياسيين من علي أمير المؤمنين، فلقد عفا عن الذين برزوا في ساحة الوغى لقتله وقتاله، وسقى الماء لمن قال له: «لا تذوق منه قطرة، حتى تذوق الموت عطشاً»، وأوصى بقاتله خيراً، وترك لأصحابه الحرية في اعتزال القتال، أو اختيار أي الفريقين شاءوا، وقال لهم حين سمعهم يشتمون معاوية ومن تابعه: إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، واتخذ مبدأ لا يحيد عنه، وهو ألا يقاتل أحداً كائناً من كان إلا «رجلين: رجلاً ادعى ما ليس له، وآخر منع الذي عليه».. أذن، فلا بد أن ينهي الإمام عن التعصب، ويقول:

«فإن كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب، ويعاسيب القبائل، بالأخلاق الرغيبة، والأحلام العظيمة، والأخطار الجليلة، والآثار المحمودة.

فتعصبوا لخلال الحمد، من الحفظ للجوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للبر، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل، والكف عن البغي، والإعظام للقتل، والإنصاف للخق، والكظم

للغيظ، واجتناب الفساد في الأرض».

هذا هو الإسلام بروحه وجوهره، تعصب لخلال الحمد، بالكف عن البغي، والأخذ بالفضل، والإنصاف للخلق، واجتناب الفساد في الأرض، والتسامح مع كل رأي ومعتقد لا ينتهي إلى الإجرام والفساد، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨].

ومن غرائب التناقضات أن الذين لا يؤمنون بالله يدعون إلى مبدأ التسامح، ونبذ التعصب في الوقت الذي يعلنون فيه حرباً لا هوادة فيها على الأديان، ويحتمون إزالة الدين من الوجود، أي دين كان، حتى ولو تسامح، ورفع الحياة إلى أعلى الدرجات، ولو أخذنا بمنطق هؤلاء لوجب القضاء عليهم قبل كل شيء، لأنهم أشد الناس تعصباً وتعنتاً.

وبالتالي، فإن التعصب عن علم وبصيرة خير وفضيلة، والتعصب عن جهل وهوى عمى ووباء.

الفرق:

قال الإمام: «فيا عجباً، وما لي لا أعجب.. من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها، لا يقتصون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، لا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى

أنفسهم، وتعويلهم في المبهمات على آرائهم، كأن كل امرئ منهم أمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعرى وثيقات، وأسباب محكمات».

وينطبق هذا القول على الفرق كل الانطباق، والمحصل منه أن هذه الفرق المختلفة لو اتفقت على أصل صحيح واضح ترجع إليه، وتتخذ منه قياساً لأحكامها لما وقع بينها هذا النزاع والصراع الذي بلغ إلى حد تكفير بعضاً بعضاً. إن كل فرقة تأبى إلا أن تفرض الصدق للصور التي في ذهنها، وألا تثق بشيء إلا بالعوامل العاطفية والشخصية، فالحق والمعروف، والباطل والمنكر ما تراه هي لا ما يثبته العقل والتجارب، وإذا استشهدت بالسنَّة والكتاب، والعقل وعمل الأصحاب، فلا تستشهد بها على أنها مصادر لمعرفة الحق بما هو حق، بل على أنها وجدت لتشهد لها ولأقوالها بالحق والصدق، حتى كأنها معصومة عن الخطيئة والخطأ دون غيرها.. وبكلمة، إنها تضفي الحق والباطل، والخير والشر، والحل والتحريم في ذاتها على الأشياء، حتى كأنه لا مصدر سواها لمعرفة هذه القيم، وما إليها، وهذا معنى قول الإمام «حتى كأن كل امرئ منهم إمام نفسه».

وتسأل: من هي الفرق التي عناها الإمام، مع العلم بأنه لم يكن في عهده مرجئة، ولا معتزلة وأشاعرة؟

وكلنا يعلم أنه قبل أن يوارى النبي في قبره الشريف اختلفت أمته شيعاً وأحزاباً، فمنهم من انحاز لأبي بكر، ومنهم من أيد

سعد بن عبادة، ومنهم من تمسك بالإمام، ثم انقسموا مرة أخرى بعد مقتل عثمان، الأكثر مع الإمام، وجماعة مع عائشة وطلحة والزبير، وثالثة مع معاوية، ورابعة اعتزلت، وامتنعت عن محاربة علي ومعاوية، ومنهم سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، ثم انشق الخوارج من جماعة الإمام، إذن، فاختلاف المسلمين يبتدئ من خلافة أبي بكر، لا من وجود الأشاعرة والمعتزلة.

الشبهات:

الشبهة فكرة غامضة، لها أكثر من وجه، تشبه الحق من جهة، والباطل من جهة ثانية، وفيها تتفاوت مراتب العلماء، وتظهر مقدرة العالم الألمعي الذي يقلب النظر في جميع الصفحات، ويميز الأصيل من الدخيل، ويرجح الأقوى على غيره، أما الصغار والمتشبهون بالعلماء فيلتبس عليهم الأمر، ويحسبون السقيم صحيحاً، والصحيح سقيماً، قال الإمام:

«لو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل لانقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث، فيمزجان، وهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

ومثال أخذ الضغث من هذا، ومن ذاك قول من قال: الله

موجود، وكل موجود يرى، فالله يرى، ويشتمل هذا القياس على مقدمتين: إحداهما صحيحة، وهي الله موجود، وهي ضغث من الحق، والثانية باطلة، وهي كل موجود يرى، وهي ضغث من الباطل، إذ الموجود يرى إن كان مادياً، ولا يرى إن كان غير مادي.

وهذا القياس وما إليه لا يأخذ به إلا المتطفلون على العلم من الذين استحوذ عليهم الشيطان، وأما الراسخون في العلم فيعلمون أنه زخرف وتضليل.

وفي كلام آخر للإمام يقسم فيه الأمور إلى ثلاثة أقسام، قال: «حلال بيِّن وحرام بيِّن، وشبهات بين ذلك، فمن ترك ما اشتبه عليه من الإثم فهو لما استبان له اترك، والمعاصي حمى الله، فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها. «واصل هذا القول الحديث المشهور عند السنة والشيعة «حلال بيِّن، وحرام بيِّن» الخ. وما استبان لك من الحلال فأنت مخير في فعله وتركه، وما استبان من الحرام فأنت ملزم بالاجتناب عنه، وكذلك المشتبه، لأن الوقوع فيه يجر إلى مواقعة الحرام البيِّن، ولو افترض أن الاقتحام في المشتبه لا يجر حتماً إلى الوقوع في الحرام فإنه عمل بلا علم يتورع عنه أهل المعرفة والإيمان.. إن العالم الحق هو الذي يقف موقف التحفظ والاحتياط، ويتهم نفسه حتى مع قيام الدليل الواضح لديه، ويخشى أن يكون مخطئاً في التطبيق، أو يكون هناك معارض أو ناسخ أو مخصص قد خفي عليه، فكيف

إذا أشكل عليه الأمر، ولم يتبين له الرشد من الغي»[1].

أشد البلاء وأفضل النعم:

قال الإمام: إن من البلاء الفاقة، وأشد من ذلك مرض البدن، وأشد من ذلك مرض القلب.

وإن من النعم سعة المال، وأفضل من ذلك صحة البدن، وأفضل من ذلك تقوى القلوب.

في هذه الحياة أنواع وألوان من المصائب والآلام لا تدخل في حصر وعد، يتقاسمها أبناء الإنسان جميعاً الفقراء والأغنياء، والمغمورون والوجهاء، والجهال والعلماء.. فصحيح الجسم قد يكون فقيراً معدماً، وصاحب الجاه والمال قد يعاني الأسقام والأدواء، والثري المعافى في بدنه يشكو خصومه الأقارب والأباعد، أو تقتله المنافسة والحسد، وأي إنسان تحقق له كل ما يريد، ولم يفقد حبيباً أو قريباً؟ بل، أي إنسان جمع بين الأشياء الخمسة التي أشار إليها الإمام بقوله: «من سعادة الرجل أن تكون له زوجة موافقة، وأولاد أبرار، وأخوان أتقياء، وجيران صالحون، ورزق في بلده؟».

---

(١) إدعي معي أيها القارئ أن يهدي الله الذين يكررون كلمة الأحوط في النجاسات وما إليها، ولا يتورعون عن أخذ الأموال من غير حل، ولا ينفقون الحقوق في وجوهها، ويتزلفون للظالمين طمعاً بالحطام:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

قسم الإمام البلاء إلى مراتب ثلاث، تأتي على الترتيب: الأولى الفقر، ورغم أنه الموت الأكبر، كما نعته الإمام فإنه أخف وطأة من مرض الأبدان، لأنه ينهك القوى، ويسلب الراحة، وأشد المصائب جميعاً مرض القلب، وهو أنواع، منها الشك في الدين والنفاق، ومنها الحسد والحقد، ومنها الكبر والغرور، وما إلى ذلك من الأدواء والأوباء، وإنما كان مرض القلب أشد وأعظم من الفقر ومرض البدن لأن صاحبه - وإن لم يشعر به الآن - فإنه مسؤول عنه - غداً - يحاسب عليه ويعاقب، وأقل عذاب من عذاب الآخرة يفوق آلام الدنيا مجتمعة. أما الفقر ومرض البدن فإنهما إلى نهاية، ولو بالموت، ولا حساب عليهما ولا عقاب، بل أجر وثواب إذ أمضى الفقير والمريض على الحق، والتسليم لأمر الله، قال الإمام:

«كنا مع رسول الله، وان القتل ليدور بين الآباء والاخوان والقرابات، فما نزداد على كل مصيبة وشدة إلا إيماناً ومضياً على الحق وتسليماً للأمر، وصبراً على مضض الجراح».

وهنا يتميز المؤمن الحق من المزيف، ويعرف الذي ينكر نفسه وأهله وماله من أجل دينه وإيمانه، من الذي ينسى دينه وخالقه من أجل منافعه ومنافع أبنائه، والصلاة والسلام على سيد الشهداء، حيث قال: «إذا محصوا بالبلاء قل الديانون».

ثم قسم الإمام مراتب النعم إلى ثلاث أيضاً: الأولى سعة المال، لأن حاجات الإنسان في هذه الحياة لا تقضى بدونه،

وخير منه صحة الأبدان، حيث يبذل المال في سبيله، أو قل: إن الصحة غاية في نفسها، أما المال فوسيلة لا غاية، وأفضل الجميع تقوى القلوب، لأن معنى التقوى الخوف من الله دون سواه، وإذا حل الخوف في القلوب طهرها من كل شائبة. ونكتفي بهذه الإشارة إلى تحليل مراتب النعم الثلاث اعتماداً على ما ذكرناه في مراتب البلاء، لأن الأشياء تعرف بأضدادها، كما تعرف بنظائرها.

ونختم هذه الفقرة بقول الإمام عليه أفضل الصلاة والسلام: «من عظَّم صغار المصائب ابتلاه الله بكبارها.. ومن أصبح يشكو مصيبة فقد أصبح يشكو ربه».

وهذه المصيبة التي عناها الإمام لا يد للإنسان فيها ولا اختيار، كالمرض وما إليه، أما المصيبة التي يولدها اللؤم والحقد، كالقلب والاضطراب، لأن فلاناً أذكى وأعرف، ويتمتع بمقام أعلى وأرفع، أما من يشكو هذه المصيبة فلا يقال عنه: إنه يشكو ربه، لأنها من وحي الشيطان، لا من صنع الرحمن.

العلم والوعي:

قال الإمام: اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية، لا عقل رواية، فإن رواة العلم كثير، ورعاته قليل.

وقال يصف أهل البيت عقلوا عقل وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير، ورعاته قليل.

وقال: لا خير في علم ليس فيه تفهم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ولا خير في صلاة ليس فيها تفقه.

وقال: من ترك قول لا أدري أصيبت مقاتله.

فرق كبير بين أن تحفظ ما قيل، وبين أن تفهم ما قيل.. فإن الحفظ بلا فهم أشبه بالتدوين على ورق، أو تسجيل الصوت في شريط أو اسطوانة، بل إن هذا أضبط وأبعد عن الخطأ، أما الفهم والوعي الكامل للشيء على حقيقته فهو العلم بكل ما في كلمته من معنى، حتى ولو لم يحفظ الواعي الألفاظ والأقوال، وهذا ما أراده الإمام من عقل الوعاية والرعاية، فالعقل الواعي هو الذي يهضم ويعلل ويحلل، ويرجع المسببات إلى أسبابها مستمداً تعليلاته من طبيعة الظروف والأحوال، ومن كل ما له صلة وتأثير بالموضوع من قريب أو بعيد.

وتلتقي ـ مع هذا القول ـ النظرية القائلة: إن مجرد الرواية وسرد الخبر لا ينتهي بنا إلى الواقع، ومعرفة الحقيقة، وانه لا بد من الانتقاد والتمحيص بالرجوع إلى العصر الذي عاش فيه كل من الراوي والمروي عنه، ودرس حياته ومقوماتها. وبالتالي، النظر إلى وجه الصلة بين هذه الحياة، وبين الرواية، وما تدل عليه من المعاني والأفكار.

وكما أن الحفظ مجرداً عن الوعي لا يجدي نفعاً فإن الوعي مجرداً عن الخلق الكريم ضره أكثر من نفعه، فعلى العالم ـ قبل كل شيء ـ أن يكون رحب الصدر، وأن يتقبل النقد، ويرجع عن

الخطأ متى تبين الصواب، وأن يقول: لا أدري إذا سئل عن شيء يجهله، لأنه إن قال بدون علم هلك وأهلك.

وقد اختلف العلماء في المراد من الراسخين في العلم في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]. فمن قائل: إنهم محمد وآله دون غيرهم، وقائل: إنهم كل من له قدم ثابت في العلم، وقال الإمام: هم الذين يحجمون عن القول بغير علم، ويعترفون أن هناك حقائق لا تبلغها أفهامهم، ولا تصل إليها عقولهم، قال:

«واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدود المضروبة دون الغيب الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً».

عامل الزمن:

قال الإمام: لا تكرهوا أولادكم على أخلاقكم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم.

وليس من شك أن الإمام أراد غير الشعائر الدينية، كالمهنة وما إليها من العلاقات الاجتماعية التي تختلف باختلاف الهيئات والأحوال.

وأود أن أشير بهذه المناسبة إلى أنه كما دخل إلى مجتمعنا عادات غريبة عنه، يرفضها الدين، كالسفور وما إليه، فقد دخل على الدين أشياء لا تمت إليه بسبب، كالضرب السيوف

والسلاسل يوم العاشر من المحرم في بلدة النبطية بجنوب لبنان، وبعض بلدان العراق وإيران.

الجهاد:

قال: الجهاد ثلاثة: جهاد بيد، وجهاد بلسان، وجهاد بقلب، فأول ما يغلب عليه من الجهاد جهاد اليد، ثم جهاد اللسان، ثم جهاد القلب، فإذا كان القلب لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً نكس، وجعل أعلاه أسفله، كما ينكس الجراب، فينثر ما فيه.

إن عظمة الإنسان بهذا القلب الذي يحس به، ويشعر، على أن يتجه هذا الإحساس إلى إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وتظهر آثاره بنحو من الأنحاء، وإلا فمن الأصلح للإنسان أن لا يوجد. وقد عبر عن هذا بقوله: «نكس وجعل أعلاه أسفله» حيث يصبح فارغاً لا يبقى فيه شيء، ولا يدخل فيه شيء.

وقال يصف الجهاد: «من تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء.. وسيم الخسف، ومنع النصف».

وجميع حوادث التاريخ تشهد بهذه الحقيقة، فما قاوم الظلم إنسان إلا وجد فرجاً ومخرجاً، أما من يرضى بالخسف والهوان فهو رق ما بقي الليل والنهار.

التاجر:

قال: التاجر فاجر، والفاجر في النار إلا من أخذ الحق، وأعطى الحق.

إن مهنة التاجر تدعوه بطبيعتها ألا يعمل إلا على أساس الربح، وأن لا يتفهم إلا لغته، وهي تجره من حيث يريد أو لا يريد إلى النفاق والغش والقسوة، والإيمان الكاذبة والاحتكار، بل أثبتت التجارب أن نوعاً من الربح يؤدي إلى الحروب والاستعمار، والسيطرة على الحكام، وإذا دلت كلمة الإمام في التاجر على شيء فإنما تدل على عظمته، وبعد نظره. هذا، مع العلم بأن عيوب التجارة ومآخذها لم تكن قد تكشفت في عهده كما هي الحال اليوم.. أما التجار الذين يأخذون حقاً، ويعطون حقاً فهم أندر من الكبريت الأحمر، بل أين هم؟

كمال الرجل:

قال: كمال الرجل بست خصال: أصغريه، وأكبريه، وهيبتيه، فأما أصغراه فقلبه ولسانه، إن قاتل قاتل بجنان، وإن تكلم تكلم ببيان. وأما أكبراه فعقله وهمته. وأما هيبتاه فماله وجماله.

إن قوة السواعد والجسم لا تجدي نفعاً إذا لم يكن معها قلب لا يهاب الموت، ومهما تكن الفكرة فإنها تفقد مزيتها إذا لم يعبر عنها بأسلوب يتغلغل بها إلى أعماق النفوس.. وكم من

عيوب للفكرة ذابت في جمال التعبير والتصوير، وكم شوّه الأسلوب النابي من جمالها وجلالها.

بطانة السوء:

قال: من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء، فإنه لو غص بغيره لأساغ الماء غصته.

ولا أعرف أحداً ينطبق عليه هذا القول ـ أكثر مما ينطبق على بطانة الرؤساء، بخاصة رجال الدين الكبار.

الصديق:

قال: لا يكون الصديق صديقاً، حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته، وغيبته، ووفاته.

- حسد الصديق من سقم المودة.
- من أطاع الواشي ضيَّع الصديق.
- ابذل لصديقك كل المودة، ولا تبذل له كل الاطمئنان، واعطه كل المساواة، ولا تفض إليه بكل الأسرار.
- لا ترغبن فيمن زهد فيك، ولا تزهد فيمن رغب فيك.
- اخوان الثقة كالكف، والجناح، والأهل، والمال، فإذا كنت من أخيك على ثقة فابذل له مالك ويدك، وصاف من صافاه، وعاد من عاداه، واكتم سره، وأعنه، وأظهر منه الحسن.

كل إنسان يتمنى أن يكون له أخ يحفظه في نكبته وغيبته،

وكثير هم الذين ظنوا أنهم وجدوا هذا الأخ، ثم تبين لهم بمرور الزمن أنهم كانوا على خطأ في ظنهم، والعاقل من يحتاط لنفسه، ولا يطمئن لأحد كائناً من كان تجنباً للنكسة، والوقوع في الندامة.

ولا أريد أن أعلق على كلام الإمام بأكثر من هذه الجملة، لأنه أجلى وأوضح من أي بيان، وإنما أريد أن أسجل بهذه المناسبة إيماني بالنتيجة التي انتهيت إليها من تجاربي الخاصة، وهو أن على الإنسان بما هو إنسان أن يخلص لأصدقائه، ويمحضهم صفو الود، ويضحي في سبيلهم بما يستطيع حمله، ولا بأس أن يؤثرهم بأشياء على نفسه، وفي الوقت نفسه يجب عليه أن يعمل لهدفه دون أن يثق بأحد، أو يتكل على أحد إلا جهاده وإخلاصه، حتى كأن وحيد فريد على وجه هذه البسيطة، أو منسي من الناس كل الناس بما فيهم الأصدقاء والأقرباء. عليه أن يعمل، وهو مؤمن بأنه لا كف إلا كفه، ولا جناح إلا جناحه، ولا مال إلا ماله، لا شيء أبداً إلا الله وهو ولا ثالث، وبكلمة، يتوجب على من يتوخى النجاح أن يكون متشائماً وشجاعاً ومخلصاً في وقت واحد، فلا يثق بغير نفسه، ولا يعتمد إلا على عمله، ولا يصغي لغير دينه وضميره.

وبالتالي، فإن الثقة بغير الله والنفس سذاجة وبله، ومحال أن يكون الأبله شيئاً مذكوراً.

الوطن:

قال في تحديد الوطن: ليس بلد بأحق بك من بلدك، خير البلاد ما حملك.

- الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة.

إن وطن الإنسان هو راحة الإنسان وأمنه، وحريته وكرامته، وحقوقه ومصيره. فكل بلد يؤمن له ذلك هو وطنه الذي يخلص له، ويستميت في سبيله، سواء أكان بلد الآباء والأجداد أو لم يكن، أما الأسماء والألفاظ فوسيلة لا غاية.

القريب:

قال في تحديد القريب: «القريب من قرّبته الأخلاق».

- «رب قريب أبعد من بعيد، ورب بعيد أقرب من قريب».

ولا شيء أدل على هذه الحقيقة من أنك تطمئن إلى أبعد الناس عنك نسباً وديناً وديارآً، وتأتمنه على نفسك ومالك وعرضك، إذا كان أميناً مخلصاً، ولا تأتمن أخاك وأقرب الناس إليك إذا كان خائناً مستهتراً.

الكذب في الأحاديث المنسوبة للرسول ﷺ

قال الإمام:

«إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعاماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً[1] ولقد كُذب على رسول الله ﷺ على عهده، حتى قام خطيباً وقال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

«وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس».

١ ـ رجل منافق، مظهر للإيمان، متصنع بالإسلام، لا يتأثم ولا يتحرّج، يكذب على رسول الله متعمداً، فلو علم الناس أنه

---

(١) المراد بالنسخ هنا رفع الحكم بعد ثبوته، ومثاله القبلة في الصلاة، فقد كانت في بدء الإسلام بيت المقدس، ثم جعلت بيت الله الحرام، والعام والخاص، مثل كل إنسان مدرك إلا الطفل والمجنون، فكل إنسان عام، وإلا الطفل والمجنون تخصيص له، والمحكم هو الواضح، والمتشابه هو المجمل الذي لم يتضح معناه، والحافظ هو الضابط لما يسمع، والواهم هو المخطئ.

منافق كاذب لم يقبلوا منه، ولم يصدقوا قوله، ولكنهم قالوا: صاحب رسول الله رأى وسمع منه، فيأخذون بقوله».

وهذا يدل دلالة صحيحة واضحة على أن الصحابة ليسوا عدولاً بكاملهم ـ كما قيل ـ وأنهم كغيرهم، فيهم الصادق والكاذب، والمنافق والمؤمن.

٢ ـ «رجل سمع من رسول الله شيئاً لم يحفظه على وجهه، فوهم فيه، ولم يتعمد كذباً، فهو في يديه، ويرويه، ويعمل به، ويقول: أنا سمعته من رسول الله ﷺ فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه، ولو علم هو أنه كذلك لرفضه».

ولأجل هذا اتفق المسلمون على أن الراوي يجب أن يكون ضابطاً. فإذا كان غير مميز، أو كان مغفلاً لا يحسن ضبط ما يسمع فلا ثقة بقوله، وإن لم يكن فاسقاً. وإن كثيراً من المؤمنين تقبل شفاعتهم، ولا تقبل شهادتهم، ولا روايتهم.

٣ ـ «رجل سمع من رسول الله شيئاً يأمر به، ثم نهى عنه، وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ، ولم يحفظ الناسخ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوا منه أنه منسوخ لرفضوه».

وتجنباً للوقوع في هذا الخطأ اتفق الفقهاء والأصوليون على أنه لا يجوز العمل بالحديث الصحيح، بل ولا بآية من آي الذكر الحكيم إلا بعد التدقيق والبحث عن الناسخ والمخصص.

٤ ـ «وآخر لم يكذب على الله، ولا على رسوله، مبغض للكذب خوفاً من الله، وتعظيماً لرسول الله، ولم يهم ـ أي لم يخطئ ـ بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على ما سمعه لم يزد فيه، ولم ينقص منه، فحفظ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنب عنه، وعرف الخاص والعام، فوضع كل شيء موضعه وعرف المتشابه ومحكمه».

أخبر النبي ﷺ في حجة الوداع أن الكذابة كثرت عليه في حياته، وأنهم سيكثرون بعد مماته، وجاء في أخبار آله الأطهار أنه ما من إمام منهم يخلو من كذاب يكذب عليه.

ولما توفي النبي ﷺ اختلف أصحابه في جملة مما روي عنه، فقد كذّب عمر وعائشة أبا هريرة، وكذّبت هي ابن عمر في بعض ما نسبه إلى الرسول الأعظم ﷺ[١] ولما رأى عمر اختلاف الصحابة في الحديث قال لهم: «هذا، وأنتم أصحاب بدر اختلفتم؟... فمن بعدكم أشد اختلافاً».

وتفرق أصحاب الرسول في الأمصار يعلمون الناس الإسلام، وكان كل صحابي يروي لأهل البلد الذي يصل إليه أحاديث لا يروي بعضها رفيقه، أو يروي عكسها في البلد الآخر. ومن هنا جاء اختلاف الأمصار في كثير من أمور الدين.

ثم جاء عصر التابعين، فاتسعت هوة الخلاف فيما بينهم

---

(١) انظر صحيح مسلم ج ١ باب «حكم ضفائر المغتسلة».

على كثير من الأحاديث، ثم تفاقمت الحال بعد التابعين، وبلغ الخلاف أقصاه بين الفقهاء كأبي حنيفة[1] والأوزاعي وسفيان الثوري، ومن إليهم.

ونفس الشيء حصل بين أرباب الفرق، كالخوارج والمرجئة والسنة والشيعة.

وكان لا بد للأمويين والعباسيين من الكذب والدس في الحديث، ليدعموا سلطانهم وسيطرتهم.. بل كان كل فقيه، ومتكلم، وقصاص، وصاحب فكرة أية فكرة، ومن يحب أن يظهر بمظهر العالم العارف، كل هؤلاء كانوا يستطيعون أن يضعوا ما شاءوا من الأحاديث، ما داموا غير مسؤولين أمام أية سلطة أو جهة.

أما الذين تصدوا لنقد الحديث، وتصحيحه فإنهم لم يزيدوا شيئاً على تقسيم الحديث، وذكر شروط الإسناد الصحيح، كنظرية عامة، أما نقد الأحاديث وتمحيصها بالتحليل والتحقيق العلمي على الطريقة المعروفة عند الغربيين اليوم من التغلغل في روح

---

(١) لم يثبت عند أبي حنيفة من الأحاديث سوى ١٧ حديثاً. وقد جرى حوار بيني وبين شيخ حنفي، فقلت له فيما قلت: هل أنت مقلد لأبي حنيفة؟ قال: أجل. قلت: فما تقول بصحيح البخاري؟ قال هو ثاني القرآن. قلت له: أنت تناقض نفسك بنفسك.. فأنت غير مقلد لأبي حنيفة، لأنك تؤمن بصحيح البخاري الذي فيه مئات الأحاديث، وأنت لا تؤمن بصحيح البخاري لأن إمامك أبا حنيفة لم يصح عنده إلا ١٧ حديثاً.. ولا أرى لك شبيهاً إلا من قال الإمام: إني أحبك وأحب أعداءك. فقال له الإمام: أنت الآن أعور، فإما أن تعمى، وإما أن تبصر.

العصر الذي عاش فيه الراوي، ودراسة أوضاعه، ومدى ارتباطها بأفكاره وروايته، أما هذا النحو من النقد فلم نجد أحداً من علماء المسلمين اعتنى به عناية مباشرة أو تنبه إليه(١) وغاية ما نجده في كتب الرجال والرواة سرد الأقوال والشهادات بصدق الراوي، أو كذبه، وعدالته أو فسقه، مجرداً عن بيئته وأحواله.. ومع علمنا بأن هذه الكتب لم تأخذ بأسباب العلم فإننا نرجع إليها، ونعتمد عليها، تماماً كما نعتمد على القرآن الكريم، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن علم الرجال ما زال كما كان منذ مئات السنين، وإننا لم نتقدم به خطوة إلى الإمام.

وبالتالي، فإن السنة النبوية طريق للأحكام الشرعية، ومفتاح للقرآن الكريم، فعلينا أن نقف موقف الحيطة والحذر من كل حديث ينسب إلى الرسول الأعظمﷺ، ولا نسمع له ونطيع إلا بعد العلم والجزم بصدوره من معدنه، أو الدليل القاطع على أننا معذورون على العمل به.

---

(١) لقد استفدت ـ فيما استفدت ـ من قراءتي وتتبعي الكتب الأجنبية المترجمة إلى العربية اني عرفت طريق البحث والدراسة الحديثة، إن الغربيين إذا تعرضوا لأديب أو لعالم أو فيلسوف أو مؤرخ لم يكتفوا بسرد أقواله ومؤلفاته، بل يعتنون قبل كل شيء بدراسة عصره وبيئته وأوضاعه، ويقارنون بينه وبين أقرانه، وبعد ذلك يحكمون له أو عليه.

في الراعي والرعية

شروط الراعي

من هو الراعي؟ وما هي الشروط التي يجب أن تتوافر فيه؟

قال الإمامية: يتعين الإمام بالنص من رسول الله، لا بالانتخاب، ويشترط أن يكون أقرب الناس من النبي، وأن يكون معصوماً، وأعلم أهل زمانه، وأشدهم في القيام بشؤون الرعية، وجاء في كلام الإمام ما يدل على هذه الصفات بكاملها، قال فيما يتعلق بالنص:

«وفينا الوصية والوراثة، وحجة الله عليكم في حجة الوداع يوم غدير خم»(١).

يشير بهذا إلى النص عليه بالخلافة من رسول الله، حيث قال يوم غدير خم: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله.

وقال في وصف آل البيت:

«لا يقاس بآل محمد ﷺ من هذه الأمة أحد، ولا يسوى

---

(١) مستدرك النهج لكاشف الغطاء ص ٥٤ منشورات مكتبة الأندلس بيروت.

بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفي الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة».

ورب سائل يسأل: «إنه قد جاء في بعض خطب النهج: «لئن كانت الإمامة لا تنعقد، حتى يحضرها عامة الناس، فما إلى ذلك سبيل، ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها، ثم ليس للشاهد أن يرجع، ولا للغائب أن يختار».

وهذا القول صريح بأن الإمامة تكون بالبيعة من الناس، لا بنص النبي.

الجواب:

إن قوله هذا من نوع الجدل، والمماشاة مع الخصم بدليل قوله «لئن كانت الإمامة» الخ أي على فرض أن الإمامة بالانتخاب كما تزعمون فإن الحجة قائمة على طلحة والزبير اللذين شهدا وبايعا، ثم نكثا، وأيضاً قائمة على معاوية، وإن لم يحضر ويشهد، لأنه لا إرادة للغائب مع إرادة الشاهد الحاضر.

وأشار الإمام إلى شروط العصمة بقوله:

«الأئمة قوّامو الله على خلقه، وعرفاؤه على عباده» حيث دل على أن الإمام يردع العاصي عن المعصية، ويرجع المخطئ عن الخطأ، وهذا يستدعي أن يكون الإمام منزهاً عن الخطأ والمعصية، إذ لو جاز عليه لاحتاج إلى إمام يرشده، ويتسلسل إلى ما لا نهاية.

أما بقية الشروط فأشار إليها بقوله: «إن أولى الناس بهذه الأمة قديماً وحديثاً أقربها من رسول الله ﷺ وأعلمها بكتاب الله، وأفقهها بدين الله، وأولها إسلاماً، وأفضلها جهاداً، وأشدها بتحمل أمور الرعية».

فالإمام يجب أن يكون أقرب الناس إلى النبي، ومن أجل هذا حصر الإمامية الخلافة بعلي وأبنائه، لأنهم آل النبي، وأحب الناس إليه، وقالت بقية الفرق ـ ما عدا الخوارج ـ: يجب أن يكون قرشياً من الصميم، علوياً كان أو غير علوي، والخوارج يلغون هذا الشرط من الأساس، ولا يفرقون بين القرشي والعبد الحبشي.

وأن يكون أعلم الناس بالدين، وإليه ذهب الإمامية، وقالوا بعدم جواز تقديم العالم على الأعلم، واكتفى غيرهم بمجرد العلم، أما الأعلمية فليست من الشروط.. بل قال صاحب كتاب «الآداب السلطانية»: روي عن الإمام أحمد ألفاظ تقتضي إسقاط اعتبار العدالة والعلم.

وأن يكون أشد الناس وأقواهم في القيام بشؤون الرعية التي فيها صلاح دينها، وفي الوقت نفسه عليه أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، أما السبق إلى الإسلام والجهاد بين يدي الرسول فمختص بمن يخلف النبي مباشرة.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه لم تشترط فرقة من المسلمين، ولا أحد من علمائهم أن يتصف الإمام بالمكر والخديعة، والنيات

المطوية، لأن المكر والخداع يستدعي الكذب والغش والخيانة، وما إلى ذاك من تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم، قال الإمام:

«والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة. ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة».

وقال: «إن الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جنة أوقى منه، ولا يغدر من علم كيف المرجع، ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة، ما لهم قاتلهم الله. قد يرى الحول القلب وجه الحيلة، ودونه مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، ينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين».

حق الرعية على الراعي

ينقسم الحاكم إلى مستبد وغير مستبد، والأول هو الذي يغتصب الحكم اغتصاباً، ويتولاه بلا نص من نبي، أو ممن نص عليه النبي، وبلا برلمان، أو ببرلمان مزيف. ولا يهتم هذا الحاكم - في الغالب - إلا بأهوائه وشهواته، ولا يعرف إلا الظلم والفساد، ولا يعتقد إلا بذكائه وآرائه، ولا يدع أحداً يفعل أو يقول أو يقرأ أو يكتب إلا ما يعنيه، ويبارك أقواله وأفعاله، وأحسن ما قيل فيه: أنه طاعون الأمة، وعلة انحطاطها.

وغير المستبد على نوعين: الأول من يتولى الحكم بالانتخاب، وعليه أن يعمل لصالح المنتخبين، وينفذ إرادتهم ورغباتهم.

والثاني يتولى الحكم بأمر الله، أي بالنص من النبي عليه، أو ممن نص عليه النبي، وعليه أن ينفذ أوامر الله وتعاليم الدين، ويلتقي هذا الحاكم مع الحاكم المنتخب فيما ذكره الإمام من واجبات تجاه رعيته، وهي ثلاثة: الأمن، والعمل على توفير العيش للجميع ما أمكن، ونشر الثقافة والتعليم، وإشارة الإمام

إلى المبدأ الأول بقوله:

«فإن شغب شاغب استعتب[1] فإن أبى قوتل.. إلا وأني أقاتل رجلين: رجلاً ادعى ما ليس له، وآخر منع الذي عليه».

وأشار إلى المبدأين الثاني والثالث بقوله:

«أيها الناس إن لي عليكم حقاً، ولكم علي حق، فأما حقكم عليّ فالنصيحة - أي الإخلاص - وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا»[2].

ونتحدث فيما يلي عن كل مبدأ من هذه الثلاثة على حدة:

الأمن:

والمراد بالأمن صيانة الحق الطبيعي لكل إنسان، والحق يطلق على ذات الله سبحانه، وعى الشيء الموجود، وعلى القول والاعتقاد المطابقين للواقع، وعلى ما للإنسان من حق طبيعي، كحرية التعبير عن رأيه، والتصرف بماله ونفسه، وحماية حياته وملكه، وما إلى ذلك. وعلى الحاكم أن يصون للرعية هذا النوع من الحق، وأن لا تأخذه فيه لومة لائم، وهو المراد من قول الإمام: «الذليل عندي عزيز، حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف، حتى آخذ الحق منه».

---

(١) المشاغب من يخرج على القانون والآداب، واستعتب، أي طلب إليه الرجوع إلى الحق والرضوخ له.

(٢) الفيء هو الخراج، وما يحويه بيت المال.

وقد حدد الإمام هذا الحق، ولم يدعه لعقول الجاهلين، وتفسير المنحرفين، قال:

«الحق لا يجري لأحد إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له، ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه».

لا نجد تحديداً أدق وأوضح وأبلغ في الإقناع من هذا التحديد، أنه معيار ثابت لا يتأثر بالأهواء والأغراض، ولا يختلف باختلاف العقول والإفهام، أن المساواة فيما لك وعليك ترادف الحق، ولا تفترق عنه بحال.. فكل ما يجوز لغيرك يجوز لك، وكل ما يحرم عليك يحرم على سواك كائناً من كان، وليس لأحد أن ينفرد عنك ويمتاز في شيء إلا الذي خلق كل شيء.

وليست هذه الكلمة الصغيرة الكبيرة معياراً للحق وكفى، بل هي أيضاً تحديد لحب الإنسان لأخيه الإنسان، وأساس للمجتمع الإنساني المثالي، وقياس يقاس به عدل الشرائع والأحكام، وصدق المبادىء والأفكار.. فكل شريعة أو حكم أو مبدأ أو قول فيه شائبة المحاباة والتمييز فهو فساد وظلام.

وقد حاول الإمام أن يقيم حكمه على مبدئه هذا لا يجري الحق لأحد إلا جرى عليه، فتظاهر ضده أشرار قريش[1]، وكان

(١) عارض وحارب أبو سفيان وأبناؤه وحزبه دعوة الرسول الأعظم، ثم استسلموا للقوة، بعد أن جعل الله كلمة نبيه هي العليا، وبعد وفاة الرسول تولى أبناء أبي سفيان أسمى المناصب، فكان هذا في واقعه انقلاباً ضد الإسلام، ونبي الإسلام.

من الأمر ما كان، ولو تركوه يعمل لكان المجتمع الإسلامي في كل عصر مثلاً يحتذيه كل من يتوخى السعادة والخير لشعبه وأمته، وإلى هذا أشار الإمام بقوله:

«لو سلمتم الأمر لأهله سلمتم، ولو أبصرتم باب الهدى رشدتم، اللهم إني دللتهم على طريق الرحمة، وحرصت على توفيقهم بالتنبيه والتذكرة»(١).

الفيء:

مضى على الناس حين من الدهر، وهم لا يفهمون من واجبات الحاكم إلا أنه يأمر وينهى، ولا شيء للمحكومين إلا أن يسمعوا ويطيعوا صاغرين، ولم يدركوا أن الحاكم مسؤول أمام رعيته عن حل مشكلة الفقر، وتحقيق حياة أسعد وأرغد للرعية إلا بعد أن حكم العلم جميع القيود والحدود، وأصبح مشاعاً للجميع، وبعد أن خطت البشرية في حياتها خطوات لا تقاس بقياس، ولا تحد بحد.

أما الإمام فقد أدرك هذه الحقيقة، حيث لا مصانع ومعامل، ولا خبراء ومواصلات، كما أدرك أن زيادة الدخل يزيد مشكلة الفقر تعقيداً إذا لم تكن وسائل الإنتاج ملكاً للجميع، قال: «عدل السلطان خير من خصب الزمان»(٢)، أي أن زيادة الإنتاج

---

(١) المستدرك جمع كاشف الغطاء ص ٥٤ «مكتبة الأندلس».

(٢) وهذا يتفق مع ما نقل عن كنفشيوس حين سئل عما يحتاج إليه في إدارة الحكم، وأجاب يحتاج إلى ثلاثة أمور: الطعام، والقوة العسكرية، وثقة الشعب. فقيل له: =

والخصب لا يجدي نفعاً إذا احتكرته الأفراد والفئات، ولم يوزع بالسوية على الجميع. أدرك الإمام هذه الحقيقة، وعمل لها منذ اليوم الأول الذي تولى فيه الحكم، وإذا لم تساعده الظروف على أن يؤمن سبيل العيش لكل مواطن فقد عمل بالعدل، وعلى تخفيف وطأة الفقر بتوفير الفيء وتوزيعه على الجميع بالسواء.

قال الرواة: حين تولى علي الخلافة حره شيء من مال الخراج، فخطب الناس، وقال:

«إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة، وأن الناس كلهم أحرار[1] ولكن الله خوّل بعضكم، فمن كان له بلاء فصبر في الخير، فلا يمنّ على الله عز وجل ـ أي من كانت له سابقة في الإسلام فأجره في الآخرة، لا في هذه الحياة ـ إلا وقد حضر شيء من المال، ونحن مسوون فيه بين الأحمر والأسود». (منهاج البراعة ج ٤ ص ٩٧).

ثم قسم المال بالسوية، فأصاب كل من طلحة والزبير ثلاثة

= إذا اضطررت إلى ترك واحد من هذه الثلاثة. قال: استغني عن القوة العسكرية. فقيل له: وإذا اضطررت إلى الاستغناء عن اثنين واختيار واحد فقط. قال: اختار ثقة الشعب، إذ يستحيل أن يستمر الشعب في الوجود بدون الثقة بحكومته.

(١) وهذا صريح بأنه لا رق ولا عبودية في الإسلام، وتؤيده الآية الكريمة التي حددت الإسلام بدين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والفطرة تأبى تقسيم الناس إلى سادة وعبيد، أما الأحاديث التي دلت بظاهرها على الاعتراف بمبدأ الرق فإنها آنية مقيدة بزمان خاص. قال الفيلسوف الأميركي جوديوس: «ولربما كانت العبودية هي الطريقة الوحيدة التي بواسطتها ارتقت الصناعة والحرف اليدوية بما كان يقدمه أولئك الأرقاء من حذق وجهد في ذلك السبيل». «الحكماء السبعة».

كما أصاب غيرهما من الموالي، فقال له رجل من الأنصار: يا أمير المؤمنين أنك جعلتني والعبد الذي اعتقته بالأمس سواءا.. فقال: إني نظرت في كتاب الله، فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحق فضلاً.

وأشارت على الإمام طائفة من أصحابه أن يفضل أشراف العرب وقريش في العطاء على الموالي والعجم، ويستميل من يخاف خلافه وفراره إلى معاوية.

فقال أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور.. لا والله لا أفعل ما طلعت شمس، وما لاح في السماء نجم. والله لو كان المال لي لساويت بينهم، فكيف، وإنما هي أموالهم؟.. ثم سكت طويلاً واجماً.. ثم قال: الأمر أسرع من ذلك، كررها ثلاثاً..

أجل، يا سيد الكونين بعد الرسول، كل شيء إلى زوال، ولا يبقى إلا وجهه، والرجل كل الرجل من يلقي الله بالحسنات لا بالسيئات.. قالوا: الدين أفيون الشعوب. ونقول: الدنيا هي الأفيون والطاعون.

الثقافة:

كان ينظر إلى العلم من قبل على أنه صفة من صفات الكمال، تماماً كالشعر وتدبيج الرسال وزخرفتها، قال شاعر الأمس:

ليس الجمال بأثواب تزيننا   إن الجمال جمال العلم والأدب

لذا لم يكن نشر الثقافة وظيفة من وظائف الدولة، تنشىء له وزارة خاصة، وتبذل في سبيله أموالاً طائلة. أما الإمام فقد نظر إلى العلم - وهو في عصر الجاهلية الجهلاء - على أنه ضرورة لبناء الحياة وتطورها وتقدمها، وأدرك خطره وأثره، واعتبره خدمة عامة يجب على الدولة أن تؤديها، كما يجب عليها أن تحفظ الأمن وتوفر الدخل، ولم يهتد العلماء وأرباب الاختصاص إلى هذه الحقيقة إلا بعد الإمام بأكثر من ألف عام، ولقد اهتدوا إليها بعد أن رأوا ما رأوا من آثار العلم، وأنشأوا وزارة للتربية والتعليم، ولكنهم وجهوا التعليم لغرس الولاء لشخص معين، أو عقيدة خاصة، أو حزب من الأحزاب، ولم يوجهوه إلى الغاية التي أشار إليها بقوله: «وتعليمكم كي لا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا» أي لتكوين المواطن الصالح الذي ينتفع، وينتفع به.

وبالإضافة إلى ما ذكرناه من شروط الراعي، وحق الرعية عليه، فإن الإمام يحتم على الراعي أن يعيش في مأكله وملبسه ومسكنه عيش الضعفاء من الناس من رعيته، ويعتبر هذا أثراً من آثار شعوره بالمسؤولية، فإذا ميز نفسه بشيء عن ضعفة الناس دل ذلك على عدم كفاءته وأهليته للحكم.

قال الإمام لعاصم الحارثي حين شكاه أخوه العلاء له: «إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس، كي لا يتبيغ بالفقير فقره» أي يهيج به ألم الفقر فيهلكه.

ولا نعرف شريعة من شرائع الدول العصرية نصت على

ذلك، لا حاكماً أخذ نفسه به، وحملها عليه، حتى حكام الدول الاشتراكية الذين يتغنون بالعدالة والمساواة فإنهم يركبون السيارات الفارهة، ويسكنون القصور العالية، ويلبسون الثياب الفاخرة، ويأكلون ما لذ وطاب، ويقبضون العلاوات للترفيه، ويقضون عطلهم في أجمل المتنزهات، كل ذلك على حساب الشعب، والنفقات العامة، تماماً كما هي حال أمراء النفط في البلاد العربية، وسكان وول ستريت في أمريكا، وداوننغ ستريت في انكلترا، ولا فرق بينهم وبين الرأسماليين من حيث العيش والرفاهية إلا بالاسم في أن الحاكم الاشتراكي لا يملك، وغيره يملك، أما النتيجة فواحدة، وهي التمييز في العيش عن الإنسان العادي. . وقد كان وما زال هذا التمييز المصدر الأول لكثير من الجرائم والمشاكل الاجتماعية.

ولو عمل الحكام بمبدأ الإمام لما كانت هذه المشاكل، ولما تكالب الناس على الحطام هذا التكالب، وتهالكوا على حب الظهور هذا التهالك، ولما أسرفوا وأنفقوا الأموال الطائلة الهائلة على الزخارف والبهارج، ولما كان هذا التحاسد والتباغض، ولاستقام الموظف الكبير والصغير، وأدى مهمته على أكمل وجه، ولم ينحرف إلى الرشوة والخيانة، وبالتالي، يكون الراعي محلاً لثقة الجميع.

حق الراعي
على الرعية

حق الراعي على الرعية

ذكرنا في الفصل السابق حق الرعية، ونذكر هنا حق الراعي على رعيته، قال الإمام:

«وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب. والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم».

وجاء في خطبة أخرى من خطب النهج:

«فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى أنوالي إليها حقها عز الحق بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على إذلالها السنن، فصلح بذلك الزمان، وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء، وإذا غلبت الرعية وإليها، وأجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة. وظهرت معالم الجور، وكثر الأدغال في الدين، وتركت محاج السنن، فعمل بالهوى، وعطلت الأحكام، وكثرت علل النفوس».

ولكن من واجب حقوق الله على العباد النصيحة بمبلغ

جهدهم، والتعاون على إقامة الحدود بينهم، وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته، وتقدمت في الدين فضيلته بفوق أن يعاون على ما حمله الله من حقه، ولا امرؤ وإن صغرته النفوس، واقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه».

ونستخلص من هذه التوجيهات الأمور التالية:

١ ـ أن المجتمع الصالح الذي يعز فيه الحق، ولا يطمع فيه العدو يتقوم بأمرين: صلاح الراعي، وصلاح الرعية، أما صلاح الراعي فيتقوم بالنصح والإخلاص للراعي الصالح، والتعاون على الخير والنفع العام، فإذا قصر الراعي، أو تمردت الرعية فقد الأمن، وعم القلق والذعر، وشلت الأعمال، وإلى هذا أشار الإمام بقوله: «فعمل بالهوى، وعطلت الأحكام». وقد اعتبر الإسلام التمرد على الحاكم تمرداً على المجتمع، وسمي الخارجين عليه بالساعين في الأرض فساداً.

وينبغي الإشارة إلى أن حق الرعية على الراعي ثابت مطلقاً، سواء أقامت الرعية بما عليها من حق الراعي، أو لم تقم. . أما حق الراعي على رعيته فمقيد بصلاح الراعي، قيامه بما عليه من حق. . فإن أهمل فلا تجب طاعته، بل يجوز خلعه وعزله.

٢ ـ أن التعاون عى الخير والأمر بالمعروف حق الله على جميع المكلفين، وأن من ترك ذلك تهاوناً فقد خان أمانة الله عز وجل جاء في الحديث: «من رأى أخاه على أمر يكرهه فلم يردعه عنه، وهو يقدر عليه فقد خان». وقال الإمام لولده الحسن:

امحض أخاك النصيحة حسنة كانت أم قبيحة.

٣ - إن الإنسان مهما بلغت منزلته من العلم، وعظمت مكانته في الدين يظل مفتقراً إلى النصيحة والإرشاد، حتى من الأشخاص العاديين. إذ ربما كشفوا له عن شيء أو أشياء لم يلتفت إليها، ومن رأى نفسه فوق النقد فقد ادعى أنه بلغ الشوط الأخير، وأحاط بكل شيء علماً.. قال الإمام في آخر الخطبة التي نقلنا منها القطعة السابقة:

«و تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل، فإني ليست بفوق أن أخطىء، ولا آمن ذلك من فعلي إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره».

ونقدم هذا الدرس البليغ من باب مدينة العلم إلى الذين يزكون أنفسهم، ويستنكفون عن الإصغاء إلى النصيحة والإرشاد.

ومهما شككت في شيء فإني لا أشك في أن من يدعي أنه أعلم الناس في زمانه لا يستطيع أن ينظر إلى شيء بعين الواقع، أو يأتي بخير ما دام معتقداً بأن علمه بما هو - وبصرف النظر عن أي أثر - هو أعظم الأعمال وأجلها. وأنه يجب أن يكون المطلب الأخير للإنسانية جمعاء... ومن كانت هذه حاله فمحال أن يقبل النصح، والتحول عن رأيه... فالأولى أن يترك وشأنه، وتتجاهل

مكانه.. وأقسم أني ما نظرت إلى واحد من المتعالين الذين عرفتهم ألا شعرت بأني أنظر إلى خرافة القرن العشرين، إلى من خلع إنسانيته ووجوده، وذهل عن نفسه، وعاش في عالم لا وجود له إلا في وهمه ومخيلته.. وهنا تكمن الأعجوبة والخرافة.

من عهد الإمام للأشتر

من عهد الإمام للأشتر

ذكرنا في الفصول السابقة شروط الراعي، وحق الرعية عليه، وحقه عليها، وهي تتضمن المبادىء الأساسية العامة التي يجب أن يرتكز عليها التشريع السياسي والحربي والمالي والإداري وما إلى ذلك. وكل ما جاء في عهد الإمام للأشتر(١) يتفرع عن تلك المبادىء التي ذكرناها في الفصول الثلاثة المتقدمة.

ونورد في هذا الفصل بعض الأمثلة من العهد المذكور تتعلق بالجيش واختيار القضاة والموظفين، وغير ذلك.

في القضاء:

بعد أن أمر الإمام الأشتر في عهد له أن يختار القضاة من أهل الكفاءة العلمية والخلقية قال:

«وافسح له ـ أي للقاضي ـ في البذل ما يزيد عليه، وثقل

---

(١) شرح هذا العهد مفصلاً الأستاذ توفيق الفكيكي في كتاب أسماه «الراعي والرعية»، وقد تجاوزت صفحاته الـ ٣٠٠ بالقطع الوزيري. اطلعت عليه فوجدته وافياً بالغرض، جديراً بالعناية، فمن أراد التفصيل فليرجع إليه.

معه حاجته إلى الناس، واعطه المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال عندك».

لا شيء أدق وأخطر من مهمة القاضي.. فإنه يحكم على الشريف والوضيع بالموت والإعدام، وبمصادرة الأموال وحجزها، وبتحليل الفروج، أو تحريمها، والدولة من وراء حكمه تنفذه بقوة السلاح دون سؤال وتردد، حتى كأنه وحي منزل، فإذا لم يكن القاضي عارفاً بمواقع الحق، أميناً عليه لا تأخذه فيه لومة لائم هلك وأهلك.. ومن هنا كان شرط العلم والعدالة فيمن يتولى منصب القضاء من الضرورات.

وإذا كان على القاضي أن يكون نزيهاً متعففاً فإن من حقه أن يفسح له في العطاء، ولا يضيق عليه في العيش، وأن يكون مستقلاً في أحكامه، أميناً على نفسه ومصدر عيشه من مداخلة المتزعمين، ومعارضة المرتزقين، كي تلزمه الحجة، ولا يبقى له من عذر يتشبث به أن حاد عن الحق.

في الجيش:

قال: «الجنود بإذن الله حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن، فلا تقوم الرعية إلا بهم.. فولّ جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيباً، وأفضلهم حلماً ممن يبطىء عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو عن الأقوياء، وممن لا يثيره العنف، ولا يقعد به الضعف».

لا يحتاج هذا الكلام إلى الشرح والتفصيل.. ولكن نقف قليلاً عند قوله: «أفضلهم حلماً، يبطىء عن الغضب، ويرأف بالضعفاء، وينبو عن الأقوياء».

إن معنى اختيار شخص للجندية أن تمنحه الدولة هيبتها، وتجعل في يده قوتها، وتعطيه السلاح الذي لا يعطى لغيره ليصون الأمن من الخارج والداخل، ويكون قوة للضعيف المحق على القوي المبطل، فلو وضعت هذه الهيبة والقوة في غير مواضعها، واستعملت في الغايات الخاصة من تخويف المستضعفين، ومساندة المتزعمين لانتفت الغاية من الجندية، وكانت الدولة أداة فساد لا إصلاح. وقوة للهدم لا للبناء.. وبكلمة أن القوة يجب أن تمنح لمن يوجهها للخير والصالح العام، للأهواء والشهوات. وعسى أن يدرك هذه الحقيقة. وينتفع بها وزراء الدفاع الذين يسخرون جنود الأمة وحراسها لمنافعهم الشخصية، وإشباع غرورهم وكبريائهم.

في الصلح:

قال: ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك، لله فيه رضا، فإن في الصلح دعة لجنودك، وراحة من همومك، وأمناً لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل، فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن».

للإمام مبدأ لا يحيد عنه، وهو حقن الدماء وصيانتها ما

أمكن، وعلى أساسه رضخ للتحكيم بينه وبين جيش الشام، ولو رفض لاستمرت الحرب بينه وبينهم من جهة، ودارت بينه وبين جماعة من أصحابه من جهة ثانية.. فآثر السلم حقنا للدماء، وإلى هذا المبدأ أشار بقوله: «إذا طمعنا في خصلة يلم الله بها شعثنا، وتتدانى بها إلى البقية فيما بيننا رغبنا فيها، وأمسكنا عما سواها».

ودلت وقائع التاريخ وحوادثه على أن الصلح بعد الحرب لا يمحو آثارها من النفوس، وأن المغلوب لا يسكن إلا ليستعد للوثوب.. ومن هنا أمر الإمام بالحذر، والأخذ بالحزم، حتى مع الصلح وسكوت الخصم.. ولو أن الذين اتهموا الإمام بعدم العلم بالسياسة تدبروا عهده للأشتر، بخاصة هذه الفقرة لرجعوا عن رأيهم أن كانوا منصفين.

في الموظفين:

قال: «ثم انظر في أمور عمالك، فاستعملهم اختياراً، ولا تولهم محاباة وأثرة.. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة.

ثم اسبغ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم أن خالفوا أمرك.. ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم».

فالكفاءة العلمية والخلقية هي الأساس لاختيار الموظفين،

والمبرر الوحيد لإسناد المناصب لمن يتصف بالمعرفة والأمانة، أما القرابة والصداقة فحقهما على القريب والصديق، لا على الأمة ومقدراتها.. ولو بحثنا عن سر تأخرنا نحن المسلمين والعرب، وتقهقرنا يوماً بعد يوم لوجدناه يكمن في المحاباة والاستئثار، يكمن في تفضيل الأشرار على الأخيار، وتقديم غير الأكفاء على الأكفاء.. هذا ابن مسؤول، أو «متزلف» له يعين مديراً أو سفيراً، وهو لا يصلح لشيء، وهذا قاض يرأس محكمة عليا أو دنيا، وهو دون كاتبه علماً وإخلاصاً.. وقد جرأت هذه الفوضى غير الأكفاء على أن يتطاولوا إلى المناصب العالية، ويزاحموا الأفذاذ من أهل المواهب والاختصاص.

أما مبدأ التفتيش على الموظفين كباراً وصغاراً الذي أشار إليه الإمام بقوله: «تفقد أعمالهم، وابعث العيون عليهم». أما هذا المبدأ فلم تعرف أهميته وفوائده إلا بعد الإمام بمئات السنين. وإلا بعد أن مرت الدول بتجارب طويلة.

في الوزراء الأشرار:

قال: إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيراً، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة.. وأنت واجد منهم خير خلف.. والصق بأهل الورع والصدق. ثم رضهم على أن لا يطردوك، ويبجحوك بباطل لم تفعله. فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدني من الغرة».

يتولى الحكم مستبد فاسد. فيهتف باسمه المرتزقة، ويقيمون له المهرجانات، وينصبون له التماثيل. وينعتونه بأسمى الألقاب.. ويتخذ هو منهم وزراء وأعواناً يسلطهم على الأبرياء والأشراف ويلقي إليهم بمقاليد الأمور يعبثون ويفسدون.

فإذا دات عليه دائرة السوء، وانتقل الحكم إلى غيره تحلقوا حوله، ومثلوا نفس الدور الذي مثلوه مع سلفه الذي تبرأوا منه ومن أعماله، وحملوه وحده جميع التبعات والسيئات، وكالوا له السباب واللعنات.. فحذر الإمام من هؤلاء.. ونصح الولاة بأقصائهم، والابتعاد عنهم، لأنهم يسيرون دائماً بمن يصحبون في طريق الفساد والجور. حتى إذا جد الجد، وجاءت ساعة الحق قالوا ما قاله الشيطان للإنسان: (إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين).

ولو أن ولاة العرب والمسلمين قبلوا مني هدية اختارها لهم لأهديت كلاً منهم قطعة كتب عليها بالخط الطويل العريض: (إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيراً) ليعلقها في مكتبه، ويكرر قراءتها هو ومن يدخل عليه من الأشرار.

هذه أمثلة يسيرة قليلة من ذاك التراث الخالد، أوردناها للتذكير بكنوزه التي ما تزال مجمدة حتى الآن. ولو عني المسلمون بفقه معانيه، وتدبر ما فيه من كنوز ورموز لكانوا في غنى عما عند الغربيين من توجيهات وتشريعات.. ولو كان هذا العهد لغير العرب والمسلمين لكتبوه بالذهب، ودرسوه في

الجامعات، ولتفرغ لشرحه، وكشف أسراره أهل المعرفة والاختصاص. ولكنه لأمير المؤمنين، وإمام المتقين علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلوات والتحيات.

الفهرس

علي والفلسفة

المقدمة ٧

في الفلسفة: نهج البلاغة ١١

هل كان الإمام علي فيلسوفاً ١٩

نظرية المعرفة عند الإمام علي ٤٥

الإلّهيات ٦٩

صفات الله ٨١

هل الإنسان مسير أم مخير؟ ٨٧

الأنبياء ٩٥

الحياة بعد الموت ١٠١

الإنسان ١١١

المرأة ١١٩

احتجاج الإمام علي على خصومه ١٢٩

التأويل ١٣٧

الأخلاق ١٤٩
من فقه الأخلاق ١٦١
الكذب في الأحاديث المنسوبة للرسول ﷺ ١٨٥
شروط الراعي ١٩٣
حق الرعية على الراعي ١٩٧
حق الراعي على الرعية ٢٠٧
من عهد الإمام للأشتر ٢١٣
الفهرس ٢٢١

٤٢٧٦٩
٢٠٠٥/١/٢٥